جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

أثر القياس التمثيلى فى إقناع الخصم بالحجة فى القرآن الكريم

الدكتور

حسين عبدالحميد حسين حسن بودى

مدرس العقيدة والفلسفة فى كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الرابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أفضل من أوتى الحكمة وفصل الخطاب، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه حق قدره ومقداره العظيم.

وبعد ،،،

فقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من المجادلات والمخاصمات، التى دارت بين الرسل والأنبياء – عليهم السلام – وبين خصومهم من الكفار والمشركين – لا سيما فى قضيتى الألوهية والبعث والمعاد –.

ولما كان القرآن الكريم يشتمل على دعوة الله للإنسانية كلها، فقد وقف أمام نزاعات مختلفة حاولت – بالباطل – إنكار حقائقه ومجادلة أصوله؛ فألجم خصومتهم بالحس والعيان، وعارضهم فى أسلوب مقنع، واستدلال ملزم، وجدل محكم؛ كل ذلك لهداية الخلق، وإلزام المعاندين فى جميع ما يهدف إليه من المقاصد التى أراد تحقيقها وترسيخها فى أذهان الناس فى جميع أصول الشريعة وفروعها.

ومن الطرق التى سلكها القرآن الكريم فى إقناع الخصم " القياس التمثيلى " وهو الذى تنتزع فيه الأدلة للرد على الخصوم من الأحوال المحسوسة دونما إلغاز أو غموض أو تعمية، حيث يقيس الغائب على الشاهد، أو يرد الغائب إلى الشاهد، أو يعتمد على ما هو مركوز فى الطباع ومسلم به؛ حتى لا يستطيع الخصم أن ينكره بحال من الأحوال. كما سيتضح ذلك فى ثنايا البحث إن شاء الله تعالى.

أسباب اختيار الموضوع:

أولاً: رأيت أن أفرد موضوعاً مستقلاً "للقياس التمثيلى" مبيناً أثره فى الحوار العقدى؛ حيث لم أجد – بحسب ما اطلعت عليه – بحثا منفرداً يبين ذلك، باستثناء بعض الكتب والمقالات التى تناولته فى ثنايا حديثها عن طرق الاستدلال المنطقية(١).

ثانياً: إثراء مكتبة العقيدة بعمل يخص الآيات القرآنية – التى تناولت الحوار العقدى مع المخالفين – بالدرس والتحليل المنطقى الذى يقوم على الحجة والإقناع، وذلك لخلوها – فيما أعلم – من عمل يتناول هذا الموضوع.

ثالثاً: الواقع الذى تعيشه الأمة، من ظهور موجات التطرف الدينى والغلو، والتكفير، والتفجير، وظهور تيارات وثقافات تسمت بمسميات غربية وأدارت ظهرها للثقافة الإسلامية واتجهت نحو الثقافة الغربية أو الشرقية.

رابعاً: أن معظم الحوارات والمناقشات التى تجرى – الآن – غالباً ما ينتهى فيها الكلام إلى اللجاج وسوء الأدب، والعناد، والمكابرة(٢)؛ وهذا مخالف لآداب المناظرة التى ينبغى أن يتحلى بها المتناظران.

خامساً: لفت الأنظار إلى ما ينبغى أن يتحلى به المتحاورون – وإن اختلفوا عقديا – من آداب لفت إليها القرآن الكريم الأنظار، من خلال حوار الأنبياء والرسل مع المخالفين لهم.

---

(١) على سبيل المثال:
- كتاب المنطق للشيخ محمد رضا المظفر صـ ٢٦٨ – ٢٧٠، ط: دار التعارف للمطبوعات، العراق ١٤١٤هـ ١٩٩٥م.
- اللآلئ العلية فى توضيح القواعد المنطقية، صـ ٢٢٢ – ٢٢٧، أ.د/ على حسن محمد على، أ.د/ سمير حامد عبد العال – كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، ط: ١٤٣٢هـ ٢٠١٢م.
- الحوار ودوره فى إثبات قضايا العقيدة، أ.د / سعد خلف عبد الوهاب، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، العدد الثانى والعشرون سنة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
- المنهج القرآنى فى الجدل والاستدلال، أ/ عبدالسلام بنهروال – الشبكة الإسلامية، الانترنت.

(٢) سيأتى تعريف المكابرة والمعاندة فى البحث صـ ٢٧ .

الدراسات السابقة:

على حد علم الباحث – فيما اطلع عليه – لا يوجد هناك من تناول " القياس التمثيلى " ببحث خاص كأحد الطرق الاستدلالية فى القرآن الكريم.

وإنما جاء ذكره والحديث عنه، فى إطار الحديث عن طرق الاستدلال القرآنى فى الرد على الخصوم [١].

منهج البحث:

اخترت فى دراستى للوقوف على أسرار التعبير القرآنى فى هذا الموضوع المنهج الاستقرائى التحليلى وفق الخطوات الآتية :

أولاً: قمت بترتيب الآيات – محل الاستشهاد – حسب ورودها فى السور وترتيبها فى المصحف الشريف.

ثانياً: اقتصرت على الجانب المنطقى عند تحليلى للآيات محل الاستشهاد، وإن شابه – أحيانا – بعض التداخلات البلاغية؛ وذلك لوجود التشابك والتلاحم بينهما.

ثالثاً: اقتصرت فى دراستى على الجانب العقدى؛ لأنه يمثل جوهر الدين، ويتقدم ما عداه من أفكار وتشريعات، وفضلا عن ذلك: فإن الجوانب الأخرى لم تشتمل على القياس التمثيلى وهو ما يخص البحث.

رابعاً: عزوت الآيات القرآنية التى وردت فى البحث إلى سورها مع ذكر رقم الآية.

خامساً: خرجت الأحاديث النبوية الشريفة والآثار الواردة فى البحث من مصادرها الأصلية.

سادساً: قمت بالتعريف ببعض المصطلحات التى جاء ذكرها فى ثنايا البحث.

سابعاً: قمت بالترجمة للأعلام التى ورد ذكرها فى البحث.

---

(١) ينظر على سبيل المثال:

- الحوار ودوره فى إثبات قضايا العقيدة، أ.د/ سعد خلف عبد الوهاب. سابق.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يأتى فى مبحثين، تسبقهما مقدمة، وتمهيد، وتعقبهما خاتمة، وفهارس فنية.

فالمقدمة: تناولت فيها أهمية البحث، والدراسات السابقة عليه، وسبب اختياره، ومنهجه، وخطته.

والتمهيد: فألقيت فيه الضوء على عنوان البحث وبيان مصطلحاته.

المبحث الأول: فتضمن أثر القياس التمثيلى فى دحض أدلة المخالفين فى قضية الألوهية. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآيات الواردة فى إقناع الخصم المنكر لوحدانية الله (ﷻ).

المطلب الثانى: الآيات الواردة فى إقناع الخصم المؤله لعيسى (عليه السلام).

وأما المبحث الثانى: فتضمن أثر القياس التمثيلى فى دحض أدلة المخالف فى قضية البعث والمعاد. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الآيات التى قيست فيها الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها.

المطلب الثانى: الآيات التى قيست فيها الإعادة على الابتداء.

المطلب الثالث: الآيات التى جمعت بين المعنيين السابقين.

وأما الخاتمة فقد ضمنتها أهم نتائج البحث.

والله – تعالى – أسأل أن يوفقنا إلى العمل الصالح، وصالح العمل، إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير.

وصل الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

التمهيد

أولاً: معنى كلمة " أثر ":

الأثر مفرد والجمع آثار، وأُثُور.

ويطلق على معانى متعددة منها: بقية الشئ، وتقديم الشئ، وذكر الشئ، والخبر.

وقيل: إن (أثر) المكون من الهمزة، والثاء، والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشئ، وذكر الشئ، ورسم الشئ الباقى(١).

ثانياً: المعنى العام للقياس:

القياس هو: قول إذا وضعت فيه أشياء أكثر من واحد، لزم الاضطرار عن تلك الأشياء الموضوعية – بذاتها لا بالعرض – شئ آخر من غيرها (٢).

وقيل هو: قول مؤلف من قضايا، متى سُلِّمت لزم عنه بذاته قول آخر (٣).

مثل قولنا: العالم متغير، وكل متغير حادث.

فإذا سلم شخص بهاتين القضيتين لزمه التسليم بقول آخر هو: العالم حادث(٤).

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور، باب: الألف – ٤ / ٥، ط: دار صادر ، بيروت ، الثالثة ١٤١٤هـ.
- التعريفات للجرجانى ، باب: الألف – ١ / ٩ – ت / مجموعة من المحققين ، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
- الكليات للكفوى ، صـ٤٠، ت / عدنان درويش – محمد المصرى، ط: مؤسسة الرسالة ، بيروت ، بدون تاريخ.
- تاج العروس للزبيدي: ١ / ٦٤، ت / مجموعة من المحققين ، ط: دار الهداية ، بدون تاريخ.
- المعجم الوسيط: ١ / ٦ ، مجمع اللغة العربية ، د / إبراهيم مصطفى وآخرون، ط: دار الدعوة ، بدون تاريخ.

(٢)القياس لأبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد: ١ / ٢ بدون طبعة.

(٣)المنطق للشيخ / محمد رضا المظفر، ص ٢٠٣. سابق.

(٤)اللآلئ العلية فى توضيح القواعد المنطقية، ص ١٢٨، أ.د / على حسن محمد، أ.د / سمير حامد عبد العال. سابق.

ثالثاً: معنى قياس التمثيل:

قياس التمثيل هو: إلحاق أحد الشيئين بالآخر، وذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذى يدعيه، على أمر معروف عند من يخاطبه، أو على أمر بدهى لا تنكره العقول.

مثل قياس البعث على النشأة الأولى، أو على خلق السماوات والأرض، أو على إحياء الأرض بالمطر[١]. أو غير ذلك مما فيه الإشارة إلى بيان قدرة الله (ﷻ).

وهذا النوع من الأقيسة يطلق عليه المتكلمون: " قياس الغائب على الشاهد " أو رد الغائب إلى الشاهد [٢].

رابعاً: مفهوم الإقناع:

الإقناع هو: التأثير فى المواقف، والمعتقدات، والنيات، والدوافع أو السلوكيات.

وقيل هو: عملية تهدف إلى تغيير موقف أو سلوك شخص (أو مجموعة) تجاه حدث معين، ويتم ذلك باستخدام كلمات مكتوبة أو منطوقة لنقل المعلومات، والمشاعر، أو الاستدلال، أو مزيج منها [٣].

خامساً: مفهوم الحجة:

الحجة هى: عبارة عما يتألف من قضايا يتجه بها إلى مطلوب يستحصل بها. وسميت بذلك؛ لأنه يحتج بها على الخصم لإثبات المطلوب. وتسمى (دليلاً)؛ لأنها تدل على المطلوب.

وعند تهيئتها وتأليفها لأجل الدلالة تسمى (استدلالاً) [٤].

---

(١)المنهج القرآنى فى الجدل والاستدلال، أ/ عبد السلام بنهروال، صـ ٤. سابق.
- وينظر: أساليب الجدل فى القرآن الكريم – منتد ى البحوث والدراسات القرآنية، د/يحيى الغوثانى، الانترنت.

(٢)اللآلئ العلية فى توضيح القواعد المنطقية، صـ ٢٢٧. سابق.

(٣)ويكبيديا – الموسوعة الحرة – شبكة الانترنت.

(٤)المنطق للشيخ / محمد رضا المظفر، صـ ٢٠١. سابق.

المبحث الأول
أثر القياس التمثيلى
فى دحض أدلة المخالفين فى قضية الألوهية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : الآيات الواردة في إقناع الخصم المنكر لوحدانية الله (ﷻ) .

المطلب الثانى : الآيات الواردة في إقناع الخصم المؤله لعيسى (عليه السلام).

المطلب الأول

الآيات الواردة فى إقناع الخصم المنكر لوحدانية الله (ﷻ)

وقد جاءت فى تسعة مواضع وهى:

١- { قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [١].

٢- { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [٢].

٣- { ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [٣].

٤- { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } [٤].

٥- { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [٥].

٦- { ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }[٦].

---

(١)سورة: الرعد، الآية [١٦].
(٢)سورة: النحل، الآية [١٧].
(٣)سورة: النحل، الآيتين [٧٥: ٧٦].
(٤)سورة: الحج، الآية [٧٣].
(٥)سورة: العنكبوت، الآية [٤١].
(٦)سورة: الروم، الآية [٢٨].

٧- { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ } (١).

٨- { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } (٢).

٩- { أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}(٣).

الآيات السابقة تشترك جميعها فى إقامة الحجة العقلية على من أشركوا بالله – تعالى – وعبدوا الأصنام والأوثان من دونه عز وجل.

لكن لكل آية منها سمة معينة تنفرد بها عن أختها، فموضع الرعد: " قل من رب السموات والأرض... فيه حجة عقلية لإبطال التعدد، وإثبات الوحدانية لله – تعالى – عن طريق " التمثيل " ؛ والذى ترجع قيمته فى أنه يقيم الحجة على من أشركوا مع الله آلهة أخرى " فلما تبيّن – قطعاً – أنه سبحانه المدبّر للسموات والأرض القاهر لمن فيهما، وتبين – قطعاً – أنه المختص بربوبيتهما؛ فأمره تعالى أن يوجه السؤال نحوهم عن ذلك – رداً على عبدة الأصنام وغيرهم من الملحدين – بقوله : " قل ".

أى بعد أن أقمت هذه الأدلة القاطعة مقرراً لهم (من رب) ؟ أى (موجد ومدبر) السموات والأرض. أى وكل ما فيهما " (٤).

قرر المولى (ﷻ): " أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو ربهما ومدبر أمرهما، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لا لنفسها ولا لعابدها – بطريق الأولى – نفعاً ولا

(١)سورة: فاطر، الآيات [٩: ٢٢].
(٢)سورة: الزمر: الآية [٢٩].
(٣)سورة: الملك، الآية [٢٢].
(٤)نظم الدرر فى تناسب السور للبقاعى ١٠ / ٣١٠، ٣١١، ط: دار الكتاب الإسلامى – القاهرة، بدون تاريخ.

ضراً، أى لا تحصل لهم منفعة، ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: " قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم " أى جعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله فى الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة منه أو مخلوقة من غيره.

أى ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا نِدَّ له ولا عدل، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبه " تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا " (١).

وخلاصة ما فى هذه الآية: " يعنى هذه الأشياء التى زعموا أنها شركاء لله، ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا: إنها تشارك الله فى الخالقية؛ توجب أن تشاركه فى الإلهية، بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الأصنام لم يصدر عنها فعل البتة، ولا خلق ولا أثر؛ وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم: بكونها شركاء لله فى الإلهية محض السفه والجهل " (٢).

حيث إنها لا تستطيع الخلق، ولا النفع، ولا الضر، ولا أى فعل البتة. فكيف توصف بالألوهية ؟ !!

وكيف تعبد من دون الله (ﷻ) ؟!

ومن يفعل ذلك يكون غاية فى الحماقة والجهل، والغباوة والعناد. وهذا المثل – على ما فيه من إفحام للمشركين – يبين مدى ضعف عقيدة الكفار والمشركين؛ ومن هنا وجه القرآن هذا السؤال: { هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٨٣، ت/ محمد حسين شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، منشورات محمد على بيضون، الأولى ١٤١٩هـ.
مختصر ابن كثير للصابونى ٢ / ٢٧٦، ط: دار التراث العربى – القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) تفسير الرازى ١٩ / ٢٦ – ٢٥، ط: دار إحياء التراث العربى – بيروت، الثالثة، ١٤٢٠هـ.

ويلاحظ فى الآية: أن الله قررهم فى بداية الحجة بالربوبية المطلقة له؛ حيث قال لهم: { مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ولكن الجواب كان أمراً من الله لنبيه أن يجيب هو: " قل الله " ولم يدعهم ليجيبوا هم؛ وذلك لأن السؤال جاء " عن أمر واضح لا يمكن أن يدفع... فكان السبق إليه إذ لا جواب إلا هذا"(١).

وهذا الإقرار بخلق الله للسموات والأرض يُحتِّمُ على من أقّر به " أن لا يشرك معه غيره، فإذا أشرك معه غيره تقام عليه الحجة، ويكون فعله أمراً منكراً؛ ولذا فإن الله أنكر عليهم وقال: { قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا } (٢).

وزيادة على الآية من تقرير يزيد الحجة قوة ووضوحاً ففيها – أيضاً – صوراً أخرى: من الإنكار، والتمثيل، والتهكم مما يزيد الحجة قوة، ورصانة وإقناعاً للخصم.

وأما قوله تعالى: { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } (٣).

ففيه حجة على من يعبد غير الله – تعالى – ويسوى بين الخالق والمخلوق، ولقد قدم الله تعالى لهذه الحجة بمقدمات: حيث ذكر أن من نعمه خلق السموات والأرض لمنافع الناس، وخلق الإنسان من طين وخلق الأنعام من أجله، وإنزال المطر وإنبات الزرع على أثره، وتسخير الليل والنهار، والشمس والقمر؛ كل هذه النعم مقدمات توصل للنتيجة المطلوبة وهى: " أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم؛ وأنتم ترون فى الشاهد إنساناً عاقلاً فاهماً يُنِعم بالنعمة العظيمة، ومع ذلك

(١)البحر المحيط فى التفسير لأبى حيان الأندلسى ٦ / ٣٧٠ – ٣٧٢، ت / صدقى محمد جميل، ط: دار الفكر – بيروت، الأولى، ١٤٢٠هـ. وينظر: النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة ٢٩٠، رسالة ماجستير للباحث / خالد محمد عزيز الدين، فى كلية اللغة العربية بأسيوط، قسم البلاغة والنقد، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

(٢)السابق نفسه ص٢٩٠.

(٣)سورة النحل: الآية (١٧).

فتعلمون أنه يَقْبُحُ عبادتُهُ، فهذه الأصنام جمادات محضة، وليس لها فهم ولا قدرة، ولا اختيار. فكيف تُقْدِمون على عبادتها " (١).

وبعد أن عَدَّد المولى – سبحانه – بعض نعمه، فصَل بينها وبين التذكير الإجمالى – وهو قوله: " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " (٢) – بقوله: { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ }؛ وذلك: " للمبادرة إلى إلزام الحجة وإلقام الحجر إثر تفصيل ما فَصَّل من الأفاعيل، التى هى أدلة التوحيد ودلالتها عليه، وإن لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليه " (٣).

فالآية فيها دلالة واضحة على نفى المشابهة بين من يخلق ومن لا يخلق؛ وفى هذا إلزام للخصم بالحجة حين عبد الأصنام وسمّاها آلهة، فسوى بين الخالق والمخلوق.

وأما قوله تعالى: { ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (٤).

فهذان مثلان " ينفيان عن الأصنام – التى هى معتمد عقيدة الكفر – صفة الكسب؛ فهم لا يقدرون على شيء: أى شيء، ويلاحظ أنه عندما نفى عنها هذه الصفة المبهمة، فإنه يثبت لها صفة أخرى تتم بها الصورة، وتحقق الضعف فى أجلى أوضاعه " (٥).

---

(١)تفسير الرازى: ٢٠ / ١٩٢. ينظر: الأمثال والمثل والتمثل والمثلاث فى القرآن الكريم لسميح عاطف الزين، صـ ٨٣ – ٨٦، ط: دار الكتاب اللبنانى – بيروت، الثانية، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٢)سورة النحل: الآية [١٨].

(٣)روح المعانى للألوسى: ١٤ / ٤٨٨، ت. د / السيد محمد السيد وسيد إبراهيم عمران، ط: دار الحديث – القاهرة، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

(٤)سورة النحل: الآيات [٧٥ – ٧٦].

(٥)خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية، د / عبد العظيم المطعنى: ٢ / ٢١١، ط: مكتبة وهبة، الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

وعند الشرح لهذين المثلين: نجد أن المولى (ﷻ) بعد أن زجرهم فى الآيات التى قبلها، عن أن يشبهوا الله بخلقه، أو أن يشبهوا الخلق بربهم – وذلك فى قوله تعالى: { فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[١] أعقب ذلك بذكر هذين المثلين السابقين أما المثل الأول وهو قوله: "ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء... " [٢].

فهو " ما ضربه الله – سبحانه – لنفسه وللأوثان فالله سبحانه هو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً، وليلاً ونهاراً، يمينه ملأى لا يغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاّء لى ويعبدونها من دونى، مع هذا التفاوت العظيم، والفرق المبين " [٣].

وهذا المعنى من أوضح المعانى وأحسنها التى قيلت فى تفسير هذه الآية؛ لأنه " أظهر فى بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم فى إقامة الحجة وأقرب نسباً " واتصالاً بالآية التى قبله وهى قوله: { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ.... فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [٤].

" ومن لوازم هذا المثل وأحكامه، أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه الله رزقاً حسناً. والكافر المشرك كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء؛ فهذا مما نبه عليه المثل"[٥].

وفى هذا ما يبين ويوضح اختلاف الوضع والحال بين الخالق (ﷻ) وبين الأصنام التى عبدوها وألهوها لأن تكون شريكة مع الله عزوجل.

---

(١)سورة النحل: الآية [٧٤].
(٢)سورة النحل: الآية [٧٥].
(٣)أعلام الموقعين لابن القيم: ١ / ١٣٨، ط: دار الحديث – القاهرة، بدون تاريخ.
(٤)سورة النحل: الآيات [٧٣ – ٧٤].
(٥)أعلام الموقعين: ١ / ١٣٨ ، ١٣٩.

ومفهوم هذه الحجة: أننا " لو فرضنا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، وفرضنا حراً كريماً غنياً كثير الإنفاق سراً وجهراً؛ فصريح العقل يشهد بأنه لا يجوز التسوية بينهما، مع استوائهما فى الخلقة والصورة، فكيف يجوز للعاقل أن يسوى بين الله القادر على الرزق والإفضال ؟.

وبين الأصنام التى لا تملك ولا تقدر ألبتة"[١] ومن هنا كان الاستفهام بصيغة "الإنكار"؛ حتى يكون ملزماً للخصم " لأن من له أدنى عقل لا يجد بداً إلا أن يقول: " لا يستوون " فإن قالوا ذلك. قيل لهم: فلماذا سويتم بين الإله الخالق والمخلوق العاجز ؟! فهذا إلزام" [٢] للخصم، وإقناع له لا يستطيع أن يقف أمامه بأى رد.

وأما المثل الثانى وهو قوله تعالى: { ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ... } [٣].

" فهو مثل ضربه الله (ﷻ) لنفسه ولما يعبد من دونه – أيضاً –، فالصنم الذى يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل، ولا ينطق، بل هو أعمى القلب أبكم اللسان. قد عدم النطق القلبى واللسانى، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة؛ وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضى لك حاجة، والله سبحانه حى قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؛ وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد[٤] فأوصاف الكمال – فى هذا المثل – لله (ﷻ) وأما أوصاف النقص – من البكم، والعجز، وعدم القدرة على شيء، وكونه عالة على غيره – فالمراد بها " الأصنام؛ لأن هذا المثل للقياس بين الله الخالق القادر، والأصنام المخلوقة العاجزة،

(١)غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى: ٧ / ٦٥، ت / حمزة النشرتى وآخرون، ط: المكتبة القيمة، بدون تاريخ.
(٢)النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـ٢٧٦.
(٣)سورة النحل: الآية (٧٥).
(٤)أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم: ١ / ١٣٩.

لأن الأصنام متصفة بأربعة أوصاف.. فإنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق، وتتسم بالعجز وأنها كَلٌّ وعبءٌ على عابديها؛ لأنها تحتاج إلى من يحملها ويضعها ويمسح عنها ما وقع عليها من الأذى. وقد قوبلت تلك الصفات الأربع بصفتين: هما كونه آمراً بالعدل، وكونه فى نفسه على صراط مستقيم؛ فالرجل الموصوف بتلك الصفات الأربع، إذا لم يكن مساوياً فى الفضل والشرف لمن اتصف بهذين الوصفين، مع استوائهما فى الخلقة والصورة البشرية؛ فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين فى المعبودية كان أولى " [١] والذى يظهر من هذا القياس – وما فيه من مقابلة بين أمرين غاية فى التناقض.

أحدهما: لا يستحق أن يوصف بأى شيء.

والآخر: موصوف بكل كمال – أن فيه إنكار على من يسوون بين الله الخالق، القادر، المتصف بكل كمال، وبين الأصنام المخلوقة العاجزة؛ وبهذا كانت الحجة أوضح وأبين، والقياس أقنع وألزم للخصم.

وأما قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ...}[٢] ففيه دلالة قوية على إبطال ما يعبده المشركون من دون الله (ﷻ)؛ حيث صور القرآن الكريم المشهد فى صورة "تمثيلية" فيها موازنة بين الخالق العظيم، وبين الأصنام التى لا قدرة لها على الخلق، والتى لا يملك أى إنسان يسمعها إلا أن يقول: ببطلان عبادة الأصنام، والإلزام بعبادة الواحد الأحد؛ ولهذا قيل: إن هذا المثل " من أبلغ ما أنزله الله فى تجهيل قريش واستركاك عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه، حيث وصفوا بالإلهية – التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها – صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه، وأذله، وأصغره، وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا " [٣].

---

(١)حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى: ٣ / ١٩٢، بتصرف يسير، نشر مكتبة الحقيقة عام ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

(٢)سورة الحج: الآية (٧٣).

(٣)تفسير الزمخشرى: ٣ / ١٧٣، ت / عبد الرازق المهدى، ط: دار إحياء التراث العربى – بيروت، بدون تاريخ. ينظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين: ١ / ١٥٧، سابق.

فهذه الآية تقيم الحجة على المشركين الذين يعبدون الأصنام مع الله – تعالى – بمثال محسوس مشاهد بينهم؛ حتى يكون المعنى قريب ولا يمكن إنكاره حتى " ولو كان ذلك بالأشياء التى يستحقرها المشركون " [١] وهو الذباب الذى يعد من أضعف المخلوقات وأحقرها.

إذاً: فكيف يستحسن عاقل عبادة الأصنام من دون الله (ﷻ) وهى ضعيفة لا تملك من أمرها شيئاً.

وأما قوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّـهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [٢].

ففيه حجة عقلية بالقياس التمثيلى، من خلال قياس حال عبدة الأصنام على حال العنكبوت وبيتها – فكما أن العنكبوت بيتها من أوهن البيوت، فكذلك دين عبدة الأصنام من أوهى الأديان وأهونها؛ حيث لا قيمة له ولا جدوى.

وهذا من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس؛ تقريباً لما بعد عن أفهام المشركين، حيث خاطبهم بما يحسون ويشاهدون، حتى لا يكون هناك مجال للمكابرة والعناد، ولما يوجد هنالك من ارتباط بين المقاس والمقاس عليه " فوجه الشبه من أبلغ ما يمكن؛ لأن الهدف من أى بيت هو أن يستر ما بداخله، وبيت العنكبوت لا يحقق هذا، لأنه من نسيج حريرى شفاف، ولا يحمى من حر ولا برد، ولا يقاوم ريحاً؛ فكذلك من يعتمد على صنم، كمن يعتمد على شيء لا يسمن ولا يغنى من جوع " [٣].

وهو تمثيل دقيق، وبيان واضح لمدى حقارة الأصنام التى تعبد من دون الله (ﷻ) وقلة جدواها " فاقتضى ذلك أن الأديان التى يعبد أهلها غير الله، هى أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والشر، وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من

---

(١)المعجزة الكبرى – القرآن – لأبى زهرة صـ١٨٨، ١٨٩، ط: دار الفكر العربى، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

(٢)سورة العنكبوت: الآية (٤١).

(٣)دراسات حول أسلوب التشبيه وآيات الوحدانية، د/ عبدالله على محمد حسن صـ١٤١، ط: مركز فجر لخدمات الطباعة – بدون تاريخ .

الضلالات، كما تتفاوت بيوت العنكبوت فى غلظها بحسب تفاوت الدويبات التى تنسجها فى القوة والضعف " [١].

إذن: يتبين لنا – من خلال المثل السابق – " أن الله قد ضرب للناس المثل ببيت العنكبوت؛ ليكون دليلاً حسياً لهم على الضعف والهوان لسائر القوى التى يلجأون إليها، وبالتصوير الصادق لكى يعتبر الناس بالمثل، فلا يلتجئون إلى قوة، ولا يطلبون حماية إلا من الله؛ لأن سائر القوى تبقى هزيلة، وبلا أدنى فائدة إن لم يشأ الله – تعالى – أن يمدها بالأسباب التى تجعلها قوة ظاهرة"[٢] ومن هنا: نرى أن هذا التمثيل قد أقام الحجة العقلية على المشركين، أنه لا معبود بحق إلا الله.

وأما قوله تعالى: { ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء... } [٣].

ففيه " دليل قياس احتج الله به – سبحانه – على المشركين؛ حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها فى نفوسهم لا يحتاجون فيها إلى غيرهم: ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو فى نفسه، مقرر عندها، معلوم لها " [٤].

وهذا المثال – على ما فيه من بيان لضعف الأصنام وعدم مشاركتها لله تعالى فى شيء – فهو مثال واقعى محسوس من أنفسهم منتزع " من أحوالها التى هى أقرب الأمور إلى المشركين، وأعرفها عندهم، وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولوية " [٥].

وخلاصة ما سبق أن يقال للمشركين: " هل ترضون أن يشارككم عبيدكم الأرقاء فى أموالكم يتصرفون فى الأموال كيفما تتصرفون، فأنتم وهم فى هذا الأمر سواء. بل وتخافون أن تتصرفوا فى هذه الأمور بدون علمهم ؟

---

(١)التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٠ / ٢٥٣، ط: دار سحنون، تونس، بدون تاريخ.
(٢)الأمثال.... فى القرآن الكريم لسميح عاطف الزين صـــ١٢٢.
(٣)سورة الروم: الآية [٢٨].
(٤)أعلام الموقعين: ١ / ١٣٧.
(٥)روح المعانى للألوسى: ٢ / ١٥١، بتصرف يسير.

وها هنا تلزمهم الحجة العقلية؛ إذ إنهم: إما أن يجيبوا بنعم نرضى، وإما أن يقولوا لا نرضى. فإن قالوا: نرضى – وهذا مستبعد – فسيكونون متناقضين مع الواقع ومع أنفسهم؛ لأن السيد لا يحب أن يشاركه مملوك فى شيء من ماله.

وإن قالوا: لا نرضى – وهذا هو الرد الطبيعى – أن يشاركوا . فيقال لهم: كيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم مثلكم فى البشرية، وتجعلون لله عبيداً أصناماً ترفعونها إلى درجة أن تشارك الله (ﷻ)؛ فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة، بطلت الشركة بين الله – سبحانه – وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد لله مخلوقون له. فكيف يشارك المخلوق خالقه ؟ !

فلم يبق إلا أن يقال: " الله واحد لا شريك له " (١). ومن هنا نرى: أن هذا القياس التمثيلى أقام الحجة على المشركين بما لا يدع مجالاً للشك والإنكار؛ حيث انتزع لهم الدليل من أنفسهم بأمر محسوس مشاهد بينهم، ليس فيه أى غموض أو تعمية، ولا ينكره إلا مكابر ومعاند.

وأما قوله تعالى: { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ... } (٢). ففيه قياس تمثيلى: ذكرت فيه عدة أمور متضادة؛ ليصحح الاعتقاد ببيان عدم التسوية بين هذه الصفات؛ والقرآن يرمى من وراء ذلك إلى بيان أنه ليس المؤمن كالكافر، أو ليس الصنم كالله (ﷻ) وليس الحق كالباطل " فكما لا تستوى هذه الصفات – لأنها متضادات – فكذلك ليست هناك مشابهة بين الأصنام وبين الله (ﷻ) " (٣) وهنا تقام عليهم الحجة. فالاستدلال على نفى الألوهية عن الأصنام – فى الآية الثانية " يتضح من خلال المقابلة بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات، " وهذه التقابلات تبرز أحقية فى جانب، وعدم استحقاق فى آخر، ولاشك أن الله هو المستحق للعبادة وأن غيره

---

(١)تفسير الزمخشرى: ٣ / ٤٧٨، ط: دار الكتاب العربى، بيروت، الثالثة، ١٤٠٧هـ، وينظر: تفسير الرازى: ٢٥ / ٩٧ .

(٢)سورة فاطر: الآية (١٩ – ٢٣).

(٣)تفسير الزمخشرى: ٣ / ٦٣٠، سابق، وينظر: النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـ٢٩٢.

لا يستحق"[١] وهنا يكون الإقناع للخصم؛ فكما أنه لا يسوى بين البصير والأعمى، فكذلك لا يسوى بين الله وغيره !!

وأما قوله تعالى: { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [٢]. فهو " مثل ضربه الله – سبحانه – للمشرك والموحد. فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى، شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون فى خدمته، لا يملكه أن يبلغ رضاهم أجمعين.

والموحد لما كان يعبد الله وحده، فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو فى راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتوليه لمصالحه. فهل يستوى هذان العبدان ؟

وهذا من أبلغ الأمثال. فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه، وقيامه بمصالحه مالا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين"[٣].

وفى هذا التمثيل ما فيه من المحاجة للمشركين، وبيان سوء حالهم فى الإشراك وفى اتخاذهم آلهة من دون الله (ﷻ) وصدق الله حيث يقول: { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [٤].

وكقوله تعالى: { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [٥].

---

(١)السابق: صـ٢٩٣.
(٢)سورة الزمر: الآية [٢٩] .
(٣)تفسير القرآن لابن القيم: ١ / ٤٥٧، ت / مكتب الدارسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ / إبراهيم رمضان، ط: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الأولى ١٤١٠هـ، وينظر: أعلام الموقعين لابن القيم: ١ / ١٦٢، التحرير والتنوير: ٢٣ / ٤٠١ ، ٤٠٢.
(٤)سورة: المؤمنون، الآية [٩١].
(٥)سورة: الأنبياء، الآية [٢٢].

فالمثل – فى محل الاستشهاد – الذى معنا فيه دلالة واضحة على فساد مذهب المشركين وقبح طريقتهم وهو: " فى غاية الحسن فى تقبيح الشرك، وتحسين التوحيد " (١).

زد على ذلك: ما فيه من إقناع للخصم بالحجة؛ والذى يظهر جلياً وواضحاً فى قوله تعالى – بعد ضرب المثل للمشرك والموحد – " هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا " فهذا الاستفهام " وهذا التوقيف لا يجيب عنه أحد إلا بأنهما لا يستويان؛ فلذلك عاملتهم العبارة على أنهم قد أجابوا، فقال: (الحمد لله) أى: على ظهور الحجة عليكم من أقوالكم " (٢).

لأن من هذين المثالين السابقين " ينتج سؤال – هو عين الحجة لإبطال الزعم القائل بالشركة بين الخالق العظيم، والأصنام المخلوقة الحقيرة – هذا السؤال هو " هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا " فإن قالوا: نعم يستويان. قالوا مالا يقول به عاقل؛ لأن هذا كلام مخالف للواقع.

وإن قالوا: " لا يستوون " فيقال لهم: فكيف تسوون بين الخالق العظيم، وبين هذه الأصنام وتجعلونها شركاء له فى الألوهية ؟ ومن هنا تقوم عليهم الحجة العقلية عن طريق القياس فطالما أنها بطلت فى حال المقيس عليه فقد بطلت فى جانب المقيس " (٣).

وبالتالى تثبت الوحدانية لله – تعالى – فى ذاته وصفاته وأسمائه.

وأن الكون له خالق واحد وهو المولى – تباركت أسماؤه – وأن ما عبد من دونه سبحانه باطل بحجة المثل السابق.

وأما قوله تعالى: { أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }(٤). ففيه قياس تمثيلى – من قبيل تشبيه المعنوى بالحسى –

---

(١)تفسير الرازى: ٢٦ / ٤٥١.

(٢)تفسير الثعالبى المسمى: الجواهر الحسان فى تفسير القرآن: ٥ / ٩٠، ت/ الشيخ: محمد على معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت، الأولى، ١٤١٨هـ.

(٣)النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـ٢٨٢.

(٤)سورة الملك: الآية (٢٢).

حيث شبه المؤمن الذى يتمسك بالدين ويسير على منهاج الله، بالذى يمشى فى طريق معتدل مستو قائم سالم من العثور والخرور. وشبه حال الكافر فى حال سيره على الدين الباطل، بمن يمشى فى مكان غير مستو فيه انخفاض وارتفاع فيعثر كل ساعة، فيخر على وجهه منكباً [١] " وهذه بديهة من البديهيّات، توضع موضع القضايا المطلوب من المشركين النظر فيها، والوصول إلى حكم لها... وذلك بعد أن عجزت عقولهم عن أن تنظر فيما ينظر فيه العقلاء ! والقضية هى: أى أهدى سبيلا، وأسلم عاقبة.. من يمشى مكباً على وجهه، لا يرى ما بين يديه، ولو كان هاوية يهوى إليها، أو وحلاً يغوص فيه ؟ أم الذى يمشى مفتّح العينين، رافع الرأس، مستقيم الخطى ؟ .. وفى هذا استخفاف بعقولهم، وإنزالهم منزلة الأطفال الذين يلقنّون المعلومات تلقينا ... " [٢].

وقد قرب هذا التمثيل صورة الممثل له وجسّدها تجسيداً محسوساً؛ للتنفير من الكفر، والترغيب فى الإيمان. " والصورة من قبيل تشبيه المعنوى بالحسى، وذلك لشدة بلادة الكافرين وتعنتهم؛ ولذلك لجأ إلى الأمور الحسية؛ لتقرع حواسهم وتلفت عقولهم " [٣].

وهذا كله لبيان عدم التسوية بين الله (ﷻ) والأصنام. وبين المؤمنين والكافرين " فإذا لم يُسوَى بين المكب على وجهه، ومن يمشى على صراط مستقيم.

فكيف يسوى بين الإله الخالق، والأصنام المخلوقة ؟ وكيف يسوى بين من يختار طريق الإسلام، ومن يختار الإلحاد والضلال ؟ " [٤] فهذا الاحتجاج فيه إبطال لمذهب عبدة الأصنام بطريق التمثيل. لا يجادل فيه إلا مكابر ومعاند.

---

(١)الكشاف للزمخشرى: ٤ / ٥٨٦، وينظر: تفسير الرازى: ٣٠ / ٥٨٤.
(٢)التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب: ١٥ / ١٠٦٦ – ١٠٦٧، ط: دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ.
(٣)دراسات حول أسلوب التشبيه، د: عبد الله على محمد حسن صـ١٥٣ – ١٥٤، سابق.
(٤)النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـ٢٩٤.

المطلب الثاني

الآيات الواردة فى دحض أدلة النصارى فى تأليه عيسى (عليه السلام)

وقد وردت فى موضعين وهما:

أ- { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}(١).

ب- { مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } (٢).

فى الآية الأولى يبطل القرآن الكريم عقيدة النصارى فى تأليههم لعيسى (عليه السلام) حيث إنهم بنوا معتقدهم هذا؛ من أجل أنه خلق من غير أب. وإذا كان الأمر كذلك فلم لم يقولوا على آدم إنه رب، فإنه خلق من غير أب ولا أم ؟!!.

فكيف قالوا: " فى عيسى إنه إله؛ لأنه خلق لا من أب ؟!. إذ عدم الأبوة فى آدم لم يوجب له أن يكون رباً، وكيف أوجب عدم الأبوة فى عيسى كونه رباً وإلهاً " (٣) فإذا كان التأليه للأشخاص، وعبادتهم من دون الواحد الأحد، مرتبط بالأمر الخارق الذى يحدث على أيديهم، أو ولادتهم من غير أب أو أم؛ فكان من باب أولى أن يكون آدم (عليه السلام) إلهاً ورباً، دون عيسى (عليه السلام) لأنه خلق من غير أبوين.

" فإذا لم يكن آدم إلهاً؛ مع أنه خلق بدون أبوين، فعيسى أولى بالمخلوقية من آدم.

ومحل التمثيل: كون كليهما – أى عيسى وآدم – عليهما السلام – من دون أب، ويزيد آدم بكونه من دون أم – أيضاً – " (٤) فالقضية إذن فى سيدنا آدم (عليه السلام) أغرب؛ " لأن الوجود من غير أب وأم أغرب، وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم، وأحسم لمادة شُبْهتِه، إذا نَظرَّ

---

(١)سورة: آل عمران، الآية [٥٩].
(٢)سورة: المائدة، الآية [٥٧].
(٣)تفسير الماتريدى المسمى بتأويلات أهل السنة: ٢ / ٣٩١، ت/ مجدى باسلوم، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
(٤)التحرير والتنوير: ٣ / ٢٦٣.

فيما هو أغرب مما استغربه"[١] وفى هذا احتجاج على النصارى الذين ألَّهوا المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) من أمرين:

" **أولهما**: أنه إذا كان خلق عيسى من غير أب مسوغاً – فى زعمهم – لأن يكون إلهاً أو ابن إله، فأولى بذلك ثم أولى آدم؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم. ولا أحد من الناس ادعى ألوهية آدم لهذا السبب، فيبطل حينئذٍ ذلك الزعم الباطل لانهيار الأساس الذى قام عليه.

ثانيهما: أن الله (سبحانه وتعالى) إذا كان قادراً على خلق إنسان حى من غير أب ولا أم، ومن مادة ليس من شأنها أن يتكون منها إنسان حى؛ فأولى أن يكون قادراً على خلق إنسان من غير أب، ومن أم هى إنسان يلد ويحيا ويموت، وهى وعاء لحياة الإنسان وهو جنين، وإذاً فلا غرابة فى خلق عيسى من غير أب، وما كان يصح أن يكون هذا دافعاً لهذا الضلال المبين " [٢].

وما فى الآية – محل الاستشهاد – من التمثيل يعتبر " حجة دامغة تقطع دعوى المبطلين " [٣] بالإضافة إلى ما فيه من بيان " لقدرة الله – تعالى – العلى القدير فى خلق الأحياء، وخلق الأشياء، من حيث إنها تخلق بإرادته المختارة، وأنه بهذه الإرادة يخلق الحى من غير الحى، ويخلق الحى على غير النظام الجارى فى مجرى العادات، وما نسميه طبائع الأشياء فى التكوين والتوالد، ولا تصدر عنه الأشياء كما يصدر المعلول عن علته " [٤].

وأما قوله تعالى:{ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[٥].

ففيه رد على النصارى الذين اعتقدوا بألوهية عيسى (عليه السلام).

---

(١)تفسير الزمخشرى: ١ / ٣٦٦.
(٢)زهرة التفاسير للشيخ / محمد أبو زهرة: ٣ / ١٢٥٠، ط: دار الفكر العربى، بدون تاريخ.
(٣)السابق نفسه: ٣ / ١٢٥٠.
(٤)السابق نفسه: ٣ / ١٢٥٠.
(٥)سورة: المائدة، الآية [٧٥].

حيث إنه بعد أن حكى القرآن الكريم – فى الآيات السابقة له – مقالة النصارى هذه وحكم بفسادها وبطلانها، وأن كل من يقول ذلك كافر؛ أخذ يدلل على ذلك بالدليل العقلى وهو (القياس التمثيلى) والذى مفهومه: أنه (عليه السلام) " مساوٍ للرسل الآخرين الذين مضوا قبله، وأنه ليس بدعاً فى هذا الوصف، ولا هو مختص فيه بخصوصية لم تكن لغيره فى وصف الرسالة. فلا شبهة للذين ادعوا له الإلهية؛ إذ لم يجئ بشيء زائد على ما جاءت به الرسل، وما جرت على يديه إلا معجزات كما جرت على أيدى الرسل قبله، وإن اختلفت صفاتها فقد تساوت فى أنها خوارق عادات وليس بعضها بأعجب من بعض؛ فما كان إحياؤه الموتى – بحقيق – أن يوهم إلهيته، وفى هذا نداء على غباوة القوم الذين استدلوا على إلهيته بأنه أحيا الموتى من الحيوان. فإن موسى أحيا العصا وهى جماد فصارت حية " [(١)].

فمن باب أولى أن يدعى أتباعه ألوهيته، ولم يحدث ذلك، وإنما هما لم يخرجا عن إطار البشرية وإن أيدهما الله – كما أيد غيرهما من الأنبياء والمرسلين – بالمعجزات والخوارق للعادات تصديقاً لهما فى دعواهما النبوة والرسالة.

وإن كان الله – تعالى– قد خص عيسى (عليه السلام) ببعض الآيات والمعجزات، فقد خص غيره – أيضاً – ببعض الخوارق والآيات.

" ولعل ما خص به غيره أعجب وأغرب مما خصه به؛ فإنه عليه الصلاة والسلام إن أحيا من مات من الأجسام التى من شأنها الحياة، فقد أحيا موسى (عليه السلام) الجماد.

وإن كان قد خلق من غير أب؛ فآدم (عليه السلام) قد خلق من غير أب وأم، فمن أين لكم وصفه بالألوهية ؟ ! " [(٢)] فالآية تدل على أنه وصف بما يتنافى مع جعله إلهاً بل هو بشرٌ رسولٌ وأمه صديقة. " وقد استدل القرآن على بشريتهما بإثبات صفة من صفات البشر وهى أكل الطعام؛ وإنما أُختيرت هذه الصفة من بين صفات كثيرة لأنها ظاهرة واضحة للناس، ولأنها أثبتتها الأناجيل؛ فقد أثبتت أن مريم أكلت

(١)التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٦ / ٢٨٥.
(٢)روح المعانى للألوسى: ٦ / ٥٢٤ – ٥٢٥.

ثمرة النخلة حين مخاضها وأن عيسى أكل مع الحواريين يوم الفِصْحِ [١] خبزاً وشرب خمراً " [٢] [٣].

وقد أخّر الله – تعالى – فى الاستدلال على بطلان مذهب النصارى، وتأليههم لعيسى وأمه – عليهما السلام – حاجتهما للطعام، عما قبله من مساواتهما للرسل عليهم السلام؛ " ترقيّا فى باب الاستدلال من الجلى للأجلى، على ما هو القاعدة فى سوق البراهين لإلزام الخصم، حتى إذا لم يسلم فى الجلىّ لغموضه عليه؛ يورد له الأجلى تعريضاً بغباوته. فيضطر للتسليم، إن لم يكن معانداً ولا مكابراً " [٤].

ومع وضوح الأدلة والبراهين على بطلان ما ذهبوا إليه، إلا أنهم لازالوا على إصرارهم وتمسكهم بشبهاتهم الظاهرة البطلان !.

ولذلك عقب المولى (ﷻ) عليه بقوله: { انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }.

" أى: على توحيد الله، وبطلان الاتحاد، وإلوهية عيسى وأمه، وبطلان شبهاتهم! ثم انظر " أنى تؤفكون " أى: كيف يصرفون عن التأمل فيها، إلى الإصرار على التمسك بالشبهات الظاهرة البطلان " [٥] وقد كرّر الله الأمر بالنظر – فى الآية السابقة – " للمبالغة فى التعجب من حال الذين يدَّعُون للمسيح وأمه الربوبية، ولا يرعوون عن ذلك بعد ما بين لهم حقيقة حالهما بياناً لا يحوم حوله شائبة ريب، وثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت. أى إن بياننا للآيات أمر بديع فى بابه، بالغ لأقاصى الغايات القاصية من التحقيق والإيضاح، وإعراضهم عنها – مع انتفاء

---

(١) الفِصْحُ عند المسيحيين: ذكرى قيامة السيد المسيح من الموت فى اعتقادهم، ويعرف بالعيد الكبير عندهم. ينظر: المعجم الوجيز صـ٤٧٢، ط: وزارة التربية والتعليم ١٤١٩هـ ١٩٩٨م . معجم المعانى الجامع، شبكة الإنترنت.

(٢) إنجيل لوقا: ٢٢ / ١٦، الكتاب المقدس، ط: دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط، بدون تاريخ.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٦ / ٢٨٦، سابق.

(٤) تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل: ٤ / ٢١٦، ت / محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٨هـ.

(٥) المصدر السابق: ٤ / ٢١٦.

ما يصححه بالمرة، وتعاضد ما يوجب قبولها – أعجب وأبدع " [١] ثم يقدم المولى (ﷻ) دليلاً آخر على فساد قول النصارى وهو قوله: { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [٢].

وهى " أمر له عليه الصلاة والسلام بإلزامهم وتبكيتهم إثر تعجبه من أحوالهم " [٣].

وفى هذا " دلالة قاطعة على أن أمر عيسى (عليه السلام) مناف للربوبية، حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء، لا يخرج مقدور على قدرته " [٤].

ثم يؤكد الإنكار والتوبيخ، ويقرر الإلزام والتبكيت بقوله: { وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

" أى تشركون بالله – تعالى – مالا يقدر على شيء من ضركم ونفعكم، والحال أن الله – تعالى – هو المختص بالإحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات؛ التى من جملتها ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة والعقائد الزائفة والأعمال السيئة " [٥].

وفى هذه الآية، والتى قبلها من التمثيل ما فيه إقناع للخصم، وإلزامه بالحجة، وبيان ما فيه من فساد معتقده، وبطلان مذهبه.

---

(١)تفسير أبى السعود: ٣ / ٦٨، ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت، بدون تاريخ، وينظر: تفسير القاسمى: ٤ / ٢١٦ – ٢١٧، سابق.
(٢)سورة المائدة: الآية (٧٦).
(٣)تفسير أبى السعود: ٣ / ٦٨.
(٤)تفسير الزمخشرى: ١ / ٦٦٥.
(٥)تفسير أبى السعود: ٣ / ٦٨.

المبحث الثانى
أثر القياس التمثيلى
فى دحض أدلة المخالف فى قضية البعث والمعاد

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الآيات التى قيست فيها الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها .

المطلب الثانى : الآيات التى قيست فيها الإعادة على الابتداء .

المطلب الثالث : الآيات التى جمعت بين المعنيين السابقين .

تمهيد:

الإيمان بالبعث ركن أساس فى العقيدة الإسلامية، ولا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا آمن به، واعتقد أن هناك يوماً يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته، وأما المشرك فلا يصدق أن هنالك حياة أخرى ينعّم فيها المؤمنون، ويعذب فيها الكافرون " ولهذا يخبر الله – سبحانه – عمن أنكر ذلك بأنه كافر بربه جاحد له، لم يقر برب العالمين فاطر السموات والأرض " (١).

وقد بنى المشركون إنكارهم للبعث على حجج واهية، وشبه بالية لا ترقى لأن تكون سبباً فى عدم حدوثه ووقوعه، وقد بينّها القرآن الكريم – على لسانهم – فى أكثر من موضع منها قولهم: { أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ } (٢).

وقولهم: { أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا } (٣).

وقولهم: { مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ } (٤).

وقولهم: { أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } (٥).

وقولهم: { أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فى الْحَافِرَةِ } (٦).

وهكذا تمضى الآيات القرآنية فى بيان الشبه التى تمسك بها المنكرون للبعث والمعاد، ويتضح من خلالها أن أعظم شبهة تمسكوا بها هى: "استبعادهم إعادة الأجسام بعد تمزقها وتفتتها، ثم اختلاطها بأجزاء الأرض؛ إذ تصبح متصورة بصورة التراب، فكيف يمكن إعادتها إلى حالتها التى كانت عليها من قبل؟!"(٧). وإنكار من أنكر إعادته بعد موته، وإحياءه بعد فنائه، هو تكذيب لله تعالى. مصداق ذلك قول النبى (ﷺ) فيما يرويه عن رب العزة – سبحانه –

---

(١)أعلام المؤمنين لابن القيم: ١ / ١٢٦.
(٢)سورة: الرعد، الآية [٥].
(٣)سورة: الإسراء، الآية [٩٨].
(٤)سورة: يس، الآية [٧٨].
(٥)سورة: ق، الآية [٣].
(٦)سورة: النازعات، الآية [١٠].
(٧)مسلك القرآن الكريم فى إثبات البعث د. على محمد الفقيهى صـــ٤ – ٥، مجلة الجامعة الإسلامية – السنة الثالثة عشر – العدد ٥٠ – ٥١ – ربيع الآخر ١٤١١هـ – ١٩٨١م.

" يقول الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك؛ فأما تكذيبه إيّاى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته. وأما شتمه إيأى فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد"(١).

ونظراً لأهمية هذه القضية "فقد سلك القرآن الكريم لإثباتها مسالك مختلفة فى طرق العرض والاستدلال، فتارة يذكر الشبهة ثم يرد عليها، وأخرى يذكر الدليل أولاً وبعد استقامته يورد القضية، وحيناً يخبر عن وقوع البعث والحساب خبراً قاطعاً، مع طى الدليل ووضوحه"(٢).

وحيناً آخر: يستخدم أسلوب التشبيه والتمثيل وهو ما يسمى عند المناطقة (قياس التمثيل) وهذا المسلك – هو مقصدنا فى هذا البحث – ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من أثرٍ فى إقناع الخصم، وإقامة الحجة عليه، وتسليمه للقضية دون مكابرة أو عناد.

وقد تنوعت طرق هذا المسلك – أعنى قياس التمثيل – فى بعض الآيات باعتبار المقاس عليه.

ففى بعضها يقيس القرآن الكريم الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها.

وفى البعض الآخر: يقيس الإعادة على الابتداء.

وأحياناً أخرى: يجتمع المعنيان فى آية واحدة ومن هنا يجيئ هذا المبحث فى ثلاثة مطالب.

---

(١)أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة، ح/ ٣٤٦، عن ابن عباس ، ط: دار ابن كثير – اليمامة – بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، د / مصطفى ديب البغا. كنز العمال ح / ٣٨٩١٣، علاء الدين على المتقى، مؤسسة الرسالة، بيروت – بدون تاريخ. مسند الشاميين للطبرانى ج٤ / ١٣٩، ح / ٢٩٤١، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٥ ١٩٨٤م، الأولى. ت / حمدى عبد المجيد السلفى.

(٢)مسلك القرآن الكريم فى إثبات البعث د. على محمد الفقيهى صـ٥.

المطلب الأول

الآيات التى قيست فيها الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها

وقد جاءت فى ثمانية مواضع هى:

١- { وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [١].

٢- { يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }[٢].

٣- { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [٣].

٤- { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ } [٤].

٥- { وَاللَّهُ الذى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } [٥].

٦- { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الذى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [٦].

٧- {وَالذى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}[٧].

٨- { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ *رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}[٨]

---

(١)سورة: الأعراف، الآية [٥٧].
(٢)سورة: الروم، الآية [١٩].
(٣)سورة: الروم، الآية [٥٠].
(٤)سورة: السجدة، الآية [٢٧].
(٥)سورة: فاطر، الآية [٩].
(٦)سورة: فصلت، الآية [٣٩].
(٧)سورة: الزخرف، الآية [١١].
(٨)سورة: ق، الآيات [٩ – ١١].

٩- { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } (١).

وقد وردت هذه الآيات جميعها لإقامة الحجة على منكرى البعث، وإقناعهم بالحجة العقلية؛ واستخدم القرآن فى ذلك أمراً مشاهداً حساً، يتكرر وقوعه بين الناس كإنبات الزرع بعد نزول المطر على الأرض بعد أن كانت قاحلة مجدبة؛ وهذا أمر لا يستطيع أحد إنكاره، " لأنها صورة شيء تتكرر على الحس، وهى أقرب من حضور شئ يقل وروده على الحس... وميل النفس إلى الحسيات أتم منه إلى العقليات، وأعنى بالحسيات ما تجرده منها بناءً على امتناع النفس من إدراك الجزئيات وزيادة ميلها إليه دون غيرها من العقليات " (٢).

وبنظرة فاحصة للآيات نجد أنها تشترك " فى خصيصة من خصائص التعبير القرآنى وهى: خاصية انتزاع الأدلة من الأحوال المحسوسة دونما إلغاز أو غموض أو تعمية، حيث إنه يقيس الغائب على الشاهد " (٣).

وعلى هذا " فالصورة المرسومة – عن إمكانية البعث – فى هذه الآيات السابقة تمتاز بالدقة فى الوصف، كما تمتاز بالدقة فى اختيار الألفاظ مع تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً، وتقريب البعيد حتى يصبح قريباً دانياً، كما أن الصورة الممثلة فى القرآن جزء هام فى الآية ليست جزءاً إضافياً ولا ثانوياً حتى ولو كانت فى أعقاب المعانى، فهى جزء أساسى لا يتم المعنى بدونها " (٤).

---

(١)سورة: عبس، الآيات [٢٤ – ٣٢].
(٢)مفتاح العلوم للسكاكى صـ٣٥٠، بتصرف يسير، ت / نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية – العلمية – بيروت – لبنان – الثانية ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
(٣)النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـ٢٥٥، سابق.
(٤)السابق نفسه .

والمتأمل فى الآيات السابقة – والتى تناولت الحديث عن البعث وإمكانية وقوعه بطريق التمثيل –؛ يجد أن القرآن الكريم قد ساق " القضية فى أسلوب منطقى واضح لا يخرج من التسليم به إلا مكابر"[١]، [٢] ومعاند[٣].

والملاحظ – أيضاً – أن الآيات جميعها تتجه نحو غاية واحدة، هى إقناع الخصم بالحجة " بطريق قياس الشبه وهو المسمى فى المنطق بـ (قياس التمثيل) بحجة قطعية، بل هو إقناعى ولكنه يصير حجة؛ لأن المقيس عليه – وإن كان أضعف من المقيس – إذ المشبه لا يبلغ قوة المشبه به، فالمشبه به – حيث كان – لا يقدر على فعله إلا الخالق الذى اتصف بالقدرة التامة لذاته، فقد تساوى فيه قويّه وضعيفه، وهم كانوا يحيلون إحياء الأموات استناداً للاستبعاد العادى، فلما نُظِّر إحياء الأموات بإحياء الأرض المشبه، تم الدليل الإقناعى المناسب لشبهتهم الإقناعية"[٤]. لكن لا يمنع ما سبق من مميزات وخصائص – تميزت بها الآيات السابقة جميعها – أن يكون لكل آية خصيصة بحسب وضعها وسياقها التى سيقت فيه.

فمثلاً الموضع الأول وهو قوله تعالى { وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ... } [٥]. أخبر " سبحانه أنهما إحياءان، وأن أحدهما معتبر بالآخر، مقيس عليه " [٦].

لكن فى جانب المقيس عليه صورة حية مرئية تطالعها العين على فترات، "وبجانب كونها حية، فهى متحركة حركة سوق السحاب، وحركة الرياح، وحركة

---

(١)المكابرة هى: المنازعة لا لإظهار الصواب ولا لإلزام الخصم، ولكن لبيان الفضل والغلبة على الخصم. [رسالة الآداب فى علم آداب البحث والمناظرة للشيخ / محمد محيى الدين عبد الحميد صـ١٢٠ – ١٧٥، ط: المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة – السابعة ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م] .

(٢)خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية: ٢ / ٢٥٣.

(٣) المعاندة هى: تنازع شخصين لا يفهم أحدهما كلام صاحبه، وهو ما فى كلام نفسه من الفساد. [رسالة الآداب فى علم آداب البحث والمناظرة صـ١٧٥] .

(٤)التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٤ / ٣٠٣، سابق.

(٥)سورة: الأعراف، الآية [٥٧].

(٦)أعلام الموقعين لابن القيم: ١ / ١١٩، سابق.

نزول الماء، والأرض وهى تتحرك بالنبات، هذه الحركات وهى جمادات لا قدرة لها بنفسها على الحركة؛ تدلّل على القدرة الإلهية فى تحريك الموتى بالحياة بعد أن كانوا لا حركة لهم... " [١].

وهو مثل ضربه الله لمنكرى البعث بما يشاهدونه من حال الأرض قبل نزول المطر عليها وهى جدباء مقفرة، ثم حين ينزل عليها الماء تحيا وتُخرج من كل الثمرات.

فهذا مثال للبعث والإحياء بعد الموت والهلاك، ولذلك قال جل شأنه: {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}. "وهى جملة معترضة استطراداً للموعظة والاستدلال على تقريب البعث الذى يستبعدونه. والإشارة بـ " كذلك " إلى الإخراج المتضمن له فعل " فأخرجنا " باعتبار ما قبله من كون البلد ميتاً، ثم إحيائه: أى إحياء ما فيه من أثر الزرع والثمر، فوجه الشبه هو إحياء بعد موت، ولا شك أن لذلك الإحياء كيفية قدّرها الله وأجمل ذكرها لقصور الأفهام عن تصورها " [٢]. وتلفت الآية السابقة الأنظار إلى أن هناك ارتباطاً " بين النفخ فى الصور الذى يجعل الحركة تدب بين الأموات، وبين الرياح التى تحرك السحاب لإنزال المطر، بحيث ينشأ من الحركة حياة جديدة فى الحالتين: فهذه على الأرض حياة النبات، وتلك يوم البعث حياة الأموات " [٣].

وفى هذا إقناع للخصم المنكر للبعث والمعاد؛ حيث إنه يرى ويشاهد الأرض الميتة تحيا وتخرج من كل الثمرات بعد نزول المطر عليها بإذن الله – تعالى –، فكذلك يحيى الله الموتى للبعث والحساب.

---

(١)حاشية الصاوى على الجلالين: ٢ / ٦٥، ط: العامرية الشرقية، الأولى – بدون تاريخ.
وينظر: النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـــ٢٥٩.
(٢)التحرير والتنوير: ٨ / ١٨٣.
(٣)الأمثال والمثل والتمثل والمثلات فى القرآن الكريم لسميح عاطف الزين، صـــ٢٥٣.

وكذلك قوله تعالى: { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [١]. فيه " دمج لدليل البعث عقب الاعتبار بإحياء الأرض بعد موتها " [٢].

وفيه إشارة إلى وجود الله وآثار قدرته، وفيه تقريب لتصور البعث وإمكان حدوثه؛ ومن هنا جاء التعقيب بقوله: { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

" فإنه يعم جميع الأشياء والبعث من جملتها؛ إذ ليس هو إلا إيجاد خلق، وهو مقدور لله تعالى كما أنشأ الخلق أول مرة، والشبه تام لأن إحياء الأرض: إيجاد أمثال ما كان عليها من النبات، فكذلك إحياء الموتى: إيجاد أمثالهم"[٣]. وهو " إحداث لمثل ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية " [٤].

وفى هذا التمثيل إقناع للخصم بالحجة، وتقريب الصورة المستبعدة عنده بأمر مشاهد محسوس ملموس، لا يمكن له أن ينكره، وإلا فهو مكابر ومعاند.

وأما قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} [٥] .

ففيه دليل مشاهد ملموس على إمكانية البعث وحدوثه؛ ولذا " نيط الاستدلال هنا بالرؤية؛ لأن إحياء الأرض بعد موتها، ثم إخراج النبت منها دلالة مشاهدة " [٦] لا يستطيع أحد أن ينكرها.

والمراد من سياق الآية كلها: " الاستدلال على البعث، وتقريبه وإمكانه، بإخراج النبت من الأرض بعد أن زال " [٧].

---

(١)سورة: الروم، الآية [٥٠].
(٢)التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢١ / ١٢٤.
(٣)السابق: ٢١ / ١٢٥.
(٤)روح المعانى للألوسى: ٢١ / ٧١، سابق.
(٥)سورة: السجدة، الآية [٢٧].
(٦)التحرير والتنوير: ٢١ / ٢٤١.
(٧)السابق: ٢١ / ٢٤١.

حيث إن الاستدلال على البعث والتأكيد على وقوعه وحدوثه أحد أهم الأغراض التى نزلت من أجلها هذه السورة.

وأما قوله تعالى: { وَاللَّهُ الذى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ } (١) .

ففيه " إشارة إلى قضية البعث التى هى مبعث ارتياب المشركين، وتكذيبهم للرسول فى كل ما يدعوهم إليه ... وفى هذه الإشارة دليل مادى محسوس يشهد لإمكانية البعث؛ وأنه إذا كانت الأرض الميتة المجدبة، ينزل عليها الماء فتلد هذه المواليد العجيبة من النبات والزهر والثمر، فإن هذه التى أودع فى ترابها الناس، ليس ببعيد أن ينفخ الله فيها نفخة الحياة فتخرج ما فى بطنها من آدميين...!"(٢).

وهو المشار إليه فى الآية السابقة بـ " النشور " (٣) وسمى بذلك: " لأن الناس يبعثون من قبورهم المتفرقة فى مناحى الأرض " (٤).

ومعنى الآية – كما ذهب بعض المفسرين –: " أى مثل إحياء النبات بعد اليبس، النشور للأموات. وقيل التمثيل فى كيفية الإحياء " (٥).

ولما كان القصد من الاستدلال " هو وقوع الإحياء – وتقرر وقوعه – جىء بالفعل الماضى فى قوله " أرسل "... تمهيداً لإمكان نظيره " (٦).

وقد روى عن النبى (ﷺ) تقرير ذلك بمثل ما روى عن عروة بن مسعود عن النبى (ﷺ) أنه "قيل لرسول الله: كيف يحى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه؟

---

(١)سورة: فاطر، الآية [٩].
(٢)التفسير القرآنى للقرآن: ١١ / ٨٥٨ – سابق.
(٣)النشور هو: إحياء الله – تعالى – الموتى من قبورهم، بعد جمع أجزائهم الأصلية. [شرح شرح الخريدة البهية للشيخ أحمد الدردير صـ٢٢٤، ت.د / مصطفى أبو زيد رشوان، ط : دار البصائر – مدينة نصر – القاهرة، الأولى ١٤٣١هـ ٢٠١٠م] .
(٤)روح المعانى للألوسى: ١١ / ٤٦٠ سابق.
(٥)تفسير الثعالبى المسمى الجواهر الحسان فى تفسير القرآن: ٤ / ٣٨٣، سابق.
(٦)التحرير والتنوير: ٢٢ / ٢٦٧ – ٢٦٨.

فقال: هل مررت بواد أهلك ممحلاً [١] ثم مررت به تهتز خَضِراً ؟ فقيل: نعم. فكذلك يحيى الله الموتى، وتلك آيته فى خلقه " [٢].

وورد –أيضاً–: " ينزل الله –تعالى– مطراً كأنه الطل [٣]، فينبت أجساد الناس" [٤].

ومن هنا يمكن القول: بأن الآية السابقة احتجاج على الكفار فى إنكارهم البعث من القبور، بأمر واقع ملموس – وهو إحياء الأرض بعد موتها – إظهاراً لإمكان نظيره، وهو إحياء الموتى من قبورهم.

وأما موضع سورة " فصلت " وهو قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الذى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [٥] ففيه استدلال على البعث والنشور؛ حيث " جعل الله – سبحانه سبحانه – إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره " [٦].

---

(١)المَحْلُ: الجدب وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ. ويقال: بلد (ماحل) وأرض (مَحْلُ) وأرض (مُحُول). [مختار الصحاح للرازى، صـ ٦١٦، ت / السيد محمود خاطر، ط: دار نهضة مصر – الفجالة – القاهرة].

(٢)كنز العمال، ح / ٣٨٩١٤، سابق.

مسند الإمام أحمد: ج ٤ / ١١، ح / ١٦٢٣٨، ط مؤسسة قرطبة – مصر – بدون تاريخ.

(٣)الطل: هو أضعف المطر، وجمعه (طلال) تقول منه (طَلَت) الأرض (طَلَّها) الندى فهى (مطلولة). [مختار الصحاح صـ ٣٩٦، سابق] .

(٤)مسند الإمام أحمد: ج ٢ / ١٦٦ ، ح / ٦٥٥٥ ، سابق .

صحيح ابن حبان ج ١٦ / ٣٤٩ ، ح / ٧٣٥٣ ، ت / شعيب الأرناؤوط ، ط : مؤسسة الرسالة – بيروت – الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٣م .

المستدرك على الصحيحين للنيسابورى ج ٤ / ٥٨٦ ، ح / ٨٦٣٢ ، ت / مصطفى عبد القادر عطا ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م .

صحيح مسلم ج ٤ / ٢٢٥٨ ، ح / ٢٩٤٠ ، ت / محمد فؤاد عبد الباقى ، ط : دار إحياء التراث العربى – بيروت – بدون تاريخ .

كنز العمال ح / ٣٨٧٤٥ .

(٥)سورة: فصلت، الآية [٣٩].

(٦)أعلام الموقعين لابن القيم: ١ / ١٢٣.

فضلاً عما فى الآية من إقناع للخصم بحدوث البعث ووقوعه، فقد اشتملت على خمسة مطالب: " أحدها: وجود الصانع وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته، وإرادته، وحياته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، وأفعاله. الثانى: أنه يحيى الموتى. الثالث: عموم قدرته على كل شئ. الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها. الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض. وقد كرّر سبحانه هذا الدليل فى كتابه مراراً؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبعده عن كل معارضة وشبهة " (١).

وقد ذكره الله (ﷻ) بعد سوقه الأدلة والبراهين على قدرته، وعلى تفرده بالخلق والتدبير، وهذا على " عادة القرآن فى التفنن وانتهاز فرص الهدى إلى الحق " (٢).

وروعى فى الآية – إثباتاً للبعث – التأكيد على هذه القضية بحرف التوكيد " إنَّ ": " لمراعاة إنكار المخاطبين إحياء الموتى " (٣).

ووصولاً إلى إقناعهم بالحجة، وإثباتاً أن البعث واقع لا محالة؛ ارتقى القرآن الكريم وساق لهم دليلاً من واقع حياتهم يشاهدونه ويلمسونه فى واقعهم: وهو إحياء الأرض بالمطر بعد أن كانت ميتة والمعنى: أنه يحيى الناس يوم البعث كما أحيا الأرض بالماء بعد أن كانت ميتة. ويخرج الموتى من قبورهم، كما أخرج النبات من الأرض.

وفى هذا دليل على إمكان إحياء الموتى بطريق القياس التمثيلى، ودلالة بالنظير على نظيره.

فإذا قيس إحياء الأموات بإحياء الأرض بعد موتها " تم الدليل الإقناعى المناسب لشبهتهم الإقناعية " (٤) والتى تقوم على استبعاد إحياء الموتى بعد أن فنيت أجسادهم وصارت تراباً.

---

(١) السابق: ١ / ١٢٤.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٤ / ٣٠٣ – سابق.
(٣) السابق نفسه: ٢٤ / ٣٠٣.
(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: ٢٤ / ٣٠٣ – سابق.

ولذا ذيل المولى (ﷻ) الآية محل الاستشهاد بقوله: { إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [١].

ومن هنا يمكن القول: بأن الله – تعالى – فى الآية السابقة لفت أنظار المنكرين للبعث من عباده.

" ما أراهم من الإحياء الذى تحققوه وشاهدوه – وهو إحياء الأرض بالمطر بعد أن كانت ميتة – على الإحياء الذى استبعدوه – وهو إحياء الناس بعد موتهم وفناء أجسامهم – وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره والعلة الموجبة: هى عموم قدرته سبحانه، وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلة " [٢].

وفى هذا إقناع للخصم بالحجة الدامغة والتى لا ينكرها إلا مكابر أو معاند.

وأما قوله تعالى: { وَالذى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } [٣].

فقد ورد فيه الحديث عن البعث فى معرض الامتنان بالنعمة على الناس؛ يدل على ذلك سياق الآيات قبله وبعده، ويلاحظ – كذلك – فى الآية أن القرآن عَبَّر فى جانب إحياء الأرض الميتة بالمطر " بالنشر ".

أى نشر الماء للأرض وإحياؤه لها بالإنبات بعد أن كانت ميتة لا حياة فيها، وعَبَّر فى جانب إحياء الموتى يوم البعث (بالإخراج) وفى هذا " تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث؛ وفى ذلك من الرد على منكريه ما فيه " [٤].

وقوله تعالى: فى الآية السابقة: { كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } فيه " استطراد بالاستدلال على ما جاء به النبى (ﷺ) من إثبات البعث، بمناسبة الاستدلال على تفرد الله بالإلهية بدلائل فى بعضها دلالة على إمكان البعث، وإبطال إحالتهم إياه"[٥]

---

(١)سورة: فصلت، الآية [٣٩].
(٢)أعلام الموقعين لابن القيم: ١ / ١١٨.
(٣)سورة: الزخرف، الآية [١١].
(٤)روح المعانى للألوسى: ٢٥ / ٩٠.
(٥)التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٧١.

قياساً على إخراج النبات من الأرض " أى مثل الإنشار الذى هو فى الحقيقة إخراج النبات من الأرض... تبعثون من قبوركم " (١).

والعلاقة بين التمثيلين هو: " إحداث الحى بعد موته " (٢) ففى هذا التمثيل إقناع للمنكرين للبعث والقائلين باستحالته. " فالذى أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها، والذى أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة، كذلك: يخرج الأحياء منها يوم القيامة " (٣).

وأما قوله تعالى: { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } (٤).

فقد ذكر القرآن الكريم قبله شبهة المنكرين، وهى شبهة الاستبعاد حيث جاء على لسانهم: { أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} (٥) أى كيف يمكن إعادة الأجسام الأجسام إلى حالتها الطبيعية – التى كانت عليها بعد أن صارت تراباً ؟! ذلك أمر غير معقول عندهم.

وبعد أن حكى القرآن مقالتهم هذه، وذكر أدلتهم وشبهتهم التى عبّروا بها عن استبعادهم للبعث ظناً منهم أن قدرة الله تشبه قدرتهم؛ فقاسوا قدرة الله على قدرتهم.

بدأ فى الرد عليهم فقال: { قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء

---

(١)روح المعانى: ٢٥ / ٩٠.
(٢)التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٧١.
(٣)فى ظلال القرآن للشيخ: سيد قطب: ٥/ ٣١٧٩، ط: دار الشروق – القاهرة، ط ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م.
(٤)سورة: ق، الآيات [٩ – ١١].
(٥)سورة: ق، الآية [٣].

مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } (١).

فالمتأمل فى هذه الآيات يرى أن المولى (ﷻ) يحشد فيها عدداً من الأدلة المعنوية منها، والحسية المشاهدة التى تخاطب العقل وتستثير الوجدان والذى يعنينا – فى هذا المقام – الأدلة الحسية المشاهدة، والتى تدل على كمال قدرته سبحانه " فقال تعالى منكراً عليهم عدم اعتبارهم بهذه الأدلة المشهودة على القدرة الإلهية { أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ } ثم تابع الأدلة الحسية على البعث فضرب لهم مثلاً بإحياء الأرض بعد موتها فقال(٢): { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء... كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } وهو مثل ضربه الله لمنكرى البعث بما يشاهدونه من حال الأرض قبل نزول المطر عليها وهى جدباء مقفرة، وحين ينزل عليها الماء تهتز وتربو فتنبت من كل زوج بهيج " أى حسن المنظر، وذلك بعد أن كانت يابسة لا نبات فيها، فأصبحت تهتز خضراً، فهذا مثال للبعث والإحياء بعد الموت والهلاك، ولذلك يقول جل شأنه: { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } أى مثل ذلك الإخراج للنبات من الأرض يحيى الله الموتى فيخرجهم من قبورهم أحياء للحساب والثواب والعقاب.

فهذا المشاهد بالإحساس من آثار قدرته تعالى، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كخلق السماء والأرض " (٣).

فهذه الأدلة والبراهين المشاهدة والمحسوسة لكل إنسان، لا تدع مجالاً للشك عند أصحاب الفطر السليمة فى إمكان وقوع البعث، وعدم استبعاده بأى حجة كانت، ومن ينكرها فهو مكابر معاند.

وأما قوله تعالى: { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا *

(١)سورة: ق، الآيات [٤: ١١].
(٢)مسلك القرآن الكريم فى إثبات البعث د. على الفقيهى صـــ١٠، سابق.
(٣)السابق: صـــ١٢.

وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [١]. فقد استدل به المولى – تبارك وتعالى – على ثبوت المعاد والحشر والنشر؛ حيث جعل الحق – سبحانه – نظر الإنسان المنكر للمعاد " فى إخراج طعامه دليلاً على إخراجه هو منها بعد موته، استدلالاً بالنظير على النظير " [٢] حيث إن الآيات فيها تصوير للمراحل والأطوار التى يمر بها النبات بداية من بذره حتى نضوجه " وفى جميع تلك الأطوار تمثيل لإحياء الأجساد المستقرة فى الأرض، فقد يكون هذا التمثيل فى مجرد الهيئة الحاصلة بإحياء الأجساد، وقد يكون تمثيلاً فى جميع تلك الأطوار بأن تخرج الأجساد من الأرض كخروج النبات بأن يكون جذرها فى الأرض ويرسل الله لها قوى لا نعلمها، تشابه قوة الماء الذى به تحيا بذور النبات... " [٣].

وعلى أية حال: فالآيات وما فيها من دعوة للتفكير فى أطوار الحبوب والثمار التى يقتات منها الإنسان وبها حياته ومعاشه؛ ليتأمل ما أودع إليه فيها من بديع وأسرار التكوين كما يشاهده ويراه بأم عينه، وكان ذلك بعد أن ذكّره فى الآيات التى قبلها بأصل خلقته ونشأته وذلك فى قوله تعالى: { مِنْ أى شَيْءٍ خَلَقَهُ}[٤] ومن نعمه النبات الذى به بقاء حياة الإنسان، وحياة ما ينفعه من الأنعام"[٥].

وفى هذه الدلائل والآيات تمثيل وقياس لإعادة الإنسان بعد موته، على إحياء الأرض بعد أن كانت ميتة، وما فى ذلك من آثار قدرته سبحانه؛ وفى هذا إقناع للخصم المنكر للمعاد بأنه واقع لا محالة، ومن ينكره فهو مكابر ومعاند.

---

(١)سورة: عبس، الآيات [٢٤ – ٣٢].
(٢)أعلام الموقعين: ١ / ١٢٥.
(٣)التحرير والتنوير: ٢٣ / ١٣٠.
(٤)سورة: عبس، الآية [١٨].
(٥)التحرير والتنوير: ٣٠ / ١٢٩.

المطلب الثاني

الآيات التى قيست فيها الإعادة على الابتداء

وقد جاءت فى تسعة عشر موضعاً وهى:

أولها: { قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } (١).

ثانيها: { قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا } (٢).

ثالثها: { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا } (٣).

رابعها: { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا } (٤).

خامسها: { وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } (٥).

سادسها: { يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاء كَطَى السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } (٦).

سابعها: { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٧).

---

(١)سورة: الأعراف، الآية [٢٩].
(٢)سورة: الإسراء، الآية [٥١].
(٣)سورة: الإسراء، الآية [٩٩].
(٤)سورة: الكهف، الآيتين [٣٧: ٣٨].
(٥)سورة: مريم، الآيتين [٦٦: ٦٧].
(٦)سورة: الأنبياء، الآية [١٠٤].
(٧)سورة: العنكبوت، الآيات [١٩: ٢٠].

ثامنها: { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [١].

تاسعها: { وَهُوَ الذى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [٢].

عاشرها: { مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }[٣].

حادى عشر: { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِى رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الذى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [٤].

ثانى عشر: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِى الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [٥].

ثالث عشر: { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [٦].

رابع عشر: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى* مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى* وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى }[٧].

خامس عشر: { أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ } [٨].

---

(١)سورة: الروم، الآية [١١].
(٢)سورة: الروم، الآية [٢٧].
(٣)سورة: السجدة، الآية [١١].
(٤)سورة: يس، الآيات [٧٧ – ٨٣].
(٥)سورة: الأحقاف، الآية [٣٣].
(٦)سورة: ق، الآية [١٥].
(٧)سورة: النجم، الآيات [٤٥ – ٤٧].
(٨)سورة: الواقعة، الآيات [٥٨ – ٦٢].

سادس عشر: { وَاللَّـهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}(١).

سابع عشر: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى* أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِى يُمْنَى* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى* أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِى الْمَوْتَى} (٢).

ثامن عشر: { قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أى شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ } (٣).

تاسع عشر: { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ } (٤).

فمن تأمل الآيات السابقة – كلها – يجد أن السياق العام الذى يجمعها هو: التدليل والبرهنة على قياس الإعادة على بدء الخلق.

وهى فى مجملها تشتمل على مقدمتين ونتيجة " أما المقدمة الأولى فهى: أن " الله خلقهم من عدم " والثانية: " من خَلق من عدم قادر على إعادة ما خلق مرة ثانية، لسهولة الثانى عن الأول " فينتج عن ذلك نتيجة هى: " الله قادر على الإعادة والبعث ".

فالحجة تقوم على القياس والمشابهة؛ حيث شبه إعادة الخلق ببدئه بجامع كونهما إيجاداً بعد العدم مع اليسر والسهولة، وإن كان اليسر والسهولة فى المشبه به أقوى وأوضح " (٥).

---

(١)سورة: نوح، الآيتين [١٧ – ١٨].
(٢)سورة: القيامة، الآيات [٣٦ – ٤٠].
(٣)سورة: عبس، الآيات [١٧ – ٢٢].
(٤)سورة: الطارق، الآيات [٥ – ١٠].
(٥)النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـ ٢٦٧.

وأما الموضع الأول وهو قوله: { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } [١] ففيه تدليل على البعث بطريق القياس التمثيلى؛ وذلك من خلال قياس الإعادة على البدء، فالذى خلقهم من العدم، سيعيدهم مرة أخرى للبعث.

و " كما أنهم ابتدأوا منه هو، فكذلك مرجعهم إليه فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر، وأن إلى ربك المنتهى " [٢].

وهو قياس بما هو مركوز فى الطباع، ومسلّم به؛ لأن الكل يعلم أنه مخلوق من العدم، وأن الخالق هو الله تعالى.

ومن ينكر ذلك فهو مكابر ومعاند للحق، وفى هذا رد على المنكرين للبعث من خلال قياس الإعادة على البدء.

ويلاحظ – فى الآية السابقة – أن الله – سبحانه – أورد " الدليل [٣] قبل الدعوى [٤] لتتمكن فى النفس فضل تمكن، وكل ذلك وجوده للاهتمام بتحقيق البعث " [٥].

وهذه إحدى المسالك التى سلكها القرآن الكريم لإثبات قضية البعث.

فالدعوى: هى إعادة الخلق وبعثهم.

والدليل على القدرة عليها هو المقدم " كما بدأكم ".

والمقصود إثباته: هو إمكان كليهما والقدرة عليهما.

وأما قوله تعالى: { قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا } [٦]. فقد اتجه فيه المنكرون للبعث إلى

---

(١)سورة: الأعراف، الآية [٢٩].
(٢)أعلام الموقعين عن رب العالمين: ١ / ١٢٢.
(٣)الدليل: هو المركب من قضيتين للتأدى إلى مجهول. [دراسة فى آداب البحث والمناظرة ، د/محمد عيسى زكريا صـ٢٩ بدون طبعة] .
(٤)الدعوى: هى قضية تشتمل على الحكم المقصود إثباته بالدليل، أو إظهاره بالتنبيه . [دراسة فى آداب البحث والمناظرة صـ١٩ سابق] .
(٥)التحرير والتنوير: ١٧ / ١٥٨.
(٦)سورة: الإسراء، الآية [٥١].

إلى طريقة أخرى – غير المشهورة عنهم فى هذه القضية – فجاء سؤالهم – فى الآية السابقة بطريقة مخالفة – حيث سألوا عن المعيد لا عن أصل الإعادة – كما هو المعهود عنهم –؛ وفى هذا نكتة جدلية " لأن البحث عن المعيد أدخل فى الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة فهو بمنزلة الجواب بالتسليم الجدلى [١] بعد الجواب بالمنع، حيث إنهم نفوا إمكان إحياء الموتى، ثم انتقلوا إلى التسليم الجدلى؛ لأنه أقوى فى معارضة الدعوى من المنع [٢] " [٣].

فكان الرد من الله على سؤالهم التهكمى " من يعيدنا " ؟ بأن الذى أوجدهم وخلقهم فى البداية من العدم، قادر على إعادتهم مرة أخرى وإحيائهم بعد موتهم.

" وهو رد يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح؛ فالذى أنشأهم إنشاءً قادر أن يردهم أحياء، ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون !! " [٤].

والإجابة من الله عليهم على لسان رسوله (ﷺ) بقوله: { قُلِ الذى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ }.

فيها بيان لقدرته سبحانه " وتعيين لمن يعيدهم؛ إبطالاً للازم التهكم وإجراء للظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم؛ لأن ذلك أجدر على طريقة الأسلوب الحكيم لزياد المحاجة، كقوله فى محاجة موسى لفرعون: {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [٥] [٦].

وأمام هذه الحجة البالغة و " التى لا يستطيعون مقارعتها بالحجج الواهية التى يبتدعونها، يصور النص القرآنى ردة الفعل لديهم التى تدل على العجز "

---

(١)التسليم الجدلى: هو ما يذكره المجيب وهو يعتقد بطلانه، سواء أكان باطلاً فى الواقع أم لم يكن كذلك. [رسالة الآداب فى علم آداب البحث والمناظرة للشيخ / محمد محيى الدين عبد الحميد صـ١٧٥] .

(٢)المنع: هو طلب الدليل على ما يحتاج إلى الاستدلال وطلب التنبيه على ما يحتاج إليه. [رسالة الآداب فى علم آداب البحث والمناظرة صـ١٠٩] .

(٣)التحرير والتنوير: ١٥ / ١٢٨.

(٤)فى ظلال القرآن للشيخ / سيد قطب ١٤ / ٢٢٣٢.

(٥)سورة: الشعراء، الآيتين [٢٥ – ٢٦].

(٦)التحرير والتنوير: ١٥ / ١٢٨.

فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ "؟ [١] فهذا التصوير التمثيلى من الله (ﷻ) لوقوع البعث يظهر فيه إقناع الخصم وإفحامه بالحجة العقلية المنطقية الواقعية، والذى يدل دلالة قاطعة على أن البعث واقع لا محالة ولا ينكره إلا مكابر أو معاند.

وأما قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُورًا } [٢].

ففيه رد على منكرى البعث الذين استبعدوا إحياء الله الموتى بعد أن صاروا تراباً وعظاماً بالية متفرقة فرد عليهم المولى – تباركت أسماؤه – وجادلهم بالمنطق الواقعى الذى يرونه ويشاهدونه ولكنهم غفلوا عنه.

بقوله: { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ... } الآية مبطلاً لاعتقادهم " بطريق الاستدلال بقياس التمثيل فى الإمكان، وهو كاف فى إقناعهم هنا؛ لأنهم إنما أنكروا البعث باعتقاد استحالته كما أفصح عنه حكاية كلامهم بالاستفهام الإنكارى.

وإحالتهم ذلك مستندة إلى أنهم صاروا عظاماً ورفاتاً، أى يتعذر خلق أمثال تلك الأجزاء ولم يستدلوا بدليل آخر؛ فكان تمثيل خلق أجسامهم من أجزاء بالية، بخلق أشياء أعظم منها من عدم أوغل فى الفناء دليلاً يقطع دعواهم " [٣].

وهذا الرد من المولى (ﷻ) قد جاء ببرهان لا يدع مجالاً للشك عند أصحاب العقل الفطرى السليم فى إمكان وقوعه وعدم استبعاده، وأنه لا ينكره إلا مكابر أو معاند جاحد للحق.

ومن هنا نعلم أنه لم يكن لدى أكثر المنكرين للبعث والحياة الأخرى بعد الموت إلا حجة واحدة يستندون إليها وهى: الاستبعاد العادى المستند إلى الوهم

---

(١) الأمثال والمثل والتمثل والمثلاث فى القرآن الكريم لسميح عاطف الزين صـ٢٤٣.
(٢) سورة: الإسراء، الآية [٩٩].
(٣) التحرير والتنوير: ١٥ / ٢١٩ – ٢٢٠.

والظن كما قال تعالى: {وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا}[١]، والظن – كما نعلم– لا يغنى من الحق شيئا.

وفى الشاهد الذى معنا كفاء وغناء ورد وإقناع للخصم الذى أنكر البعث، والحياة الآخرة، مستنداً إلى حجج واهية وشبه بالية لا ترقى لأن تكون سبباً فى عدم حدوثه ووقوعه.

وأما قوله تعالى: { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا } [٢].

ففيه حوار بين المؤمن والكافر الذى أنكر البعث والمعاد قائلاً: { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا }[٣] فرد عليه المؤمن قائلاً: { أَكَفَرْتَ بِالذى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا } فالذى ينكر المعاد كافر بالله (ﷻ) وإن زعم أنه مؤمن به والمراد بالكفر فى الآية " الاشراك الذى من جملة معتقداته إنكار البعث " [٤].

فرد عليه المؤمن رداً مفحماً مذكّراً إياه بأصل خلقته ونشأته وبدايته، مقيساً الإعادة على الابتداء؛ لأنهم يعترفون ويقرّون بأن الذى خلق الناس هو الله كما قال – تعالى – حكاية عنهم فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ومنه قوله: { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [٥].

وقوله: { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } [٦].

وقوله: { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ } [٧].

---

(١)سورة: الجن، الآية [٧].
(٢)سورة: الكهف، الآية [٣٧].
(٣)سورة: الكهف، الآيتين [٣٧ – ٣٨].
(٤)التحرير والتنوير: ١٥ / ٣٢٢.
(٥)سورة: العنكبوت، الآية [٦١].
(٦)سورة: العنكبوت، الآية [٦٣].
(٧)سورة: الزخرف، الآية [٨٧].

فإذا علم الإنسان المنكر للمعاد حقيقة خلقه الأول، وأنه أنشئ من العدم؛ صرفه ذلك عن إنكار البعث والمعاد، وعلم أنه واقع لا محالة؛ وإلا فهو مكابر ومعاند.

وأما قوله تعالى: {وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[١] ففيه تذكير لمن أنكر البعث –استبعاداً لحصوله– بأنه حاصل لا محالة؛ وذلك قياساً على "النشأة الأولى فإنها أعجب عند اللذين يجرون فى مداركهم على أحكام العادة؛ فإن الإيجاد عن عدم – من غير سبق مثال – أعجب وأدعى إلى الاستبعاد، من إعادة موجودات كانت لها أمثلة ولكنها فسدت هياكلها وتغيرت تراكيبها؛ وهذا قياس على الشاهد وإن كان القادر سواء عليه الأمران" [٢]. وفى هذا إقناع للخصم المنكر للمعاد المستبعد لحصوله.

وأما قوله تعالى: { يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاء كَطَى السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ }[٣]. ففيه حجة عقلية تؤكد أن البعث واقع لا لا محالة؛ فمن أوجد الشيء بداية من العدم قادر على إعادته ثانياً بعد فنائه وعدمه.

ويلاحظ فى هذه الحجة: أن الله (ﷻ) قدّم الدليل على الدعوى – كما سبق فى موضع الأعراف فى قوله { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } [٤]، وذلك " لتتمكن فى النفس فضل تمكن، وكل ذلك وجوده للاهتمام بتحقيق البعث " [٥].

وإن اختلفت الآية – التى معنا – عن موضع " الأعراف " حيث ذكر الله (ﷻ) – هنا – فى مطلع الآية حالاً من أحوال يوم القيامة، وهو طى السماء كطى السجل للكتب، وهذا يعتبر تهيئة وتقديماً وتدليلاً على أمر البعث.

---

(١)سورة: مريم، الآيتين [٦٦: ٦٧].
(٢)التحرير والتنوير: ١٦ / ١٤٦.
(٣)سورة: الأنبياء، الآية [١٠٤].
(٤)سورة: الأعراف، الآية [٢٩].
(٥)التحرير والتنوير: ١٧ / ١٥٨.

" فالآية مساقة لتسوى بين الأمرين، البدء والإعادة، فهما على حد سواء بل والإعادة أيسر وأهون، والجامع بين البدء والإعادة هو اليسر والسهولة ... " [١] وفى هذا إقناع للخصم بالحجة وأن البعث واقع لا محالة.

وأما قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [٢]. **ففيه إقناع للخصم المنكر للمعاد بدليلين:**

الأول: حاصل فى الآية الأولى فى قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} وهو " الدليل النفسى الحاصل لهذا الإنسان من نفسه، وموجبه العلم الحَدْسِى [٣] التام وهو العلم الحاصل من غير طلب.

فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا} على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه"[٤].

والحكمة فى التعبير بصيغة الاستفهام فى الآية؛ " لأن العلم الحدسى إن حصل: فالأمر به تحصيل الحاصل، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب؛ لأن بالطلب يصير الحاصل فكرياً، فيكون الأمر به تكليف مالا يطاق " [٥].

وفى الآية تأكيد آخر إقامة للحجة، وإقناع للخصم وذلك بإبراز اسم الجلالة مرة أخرى فى الآية. بقوله: { إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } ولم يقل: إن ذلك عليه يسير كما قال: " ثم يعيده " من غير إبراز للفظ الجلالة.

" نقول مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده بإظهار اسمه مرة أخرى، فإنه يوجب المعرفة – أيضاً – بكون ذلك يسيراً، فإن الإنسان إذا سمع لفظ " الله "

---

(١) النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـ٢٦٩.
(٢) سورة: العنكبوت، الآيات [١٩ – ٢٠].
(٣) قيل هو: ما جاء نتيجة شعور داخلى أو تنبؤ غريزى وقيل هو: إدراك الشيء إدراكاً مباشراً من غير اعتماد على خبرة سابقة. [ينظر: معجم المعانى الجامع – شبكة الإنترنت] .
(٤) تفسير الرازى المسمى بمفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: ٢٥ / ٤٠ – ٤١، بتصرف يسير، ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.
(٥) السابق: ٢٥ / ٤٠.

وفهم معناه – أنه الحى القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شيء، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم، نافذ الإرادة لا راد لما أراده – يقطع بجواز الإعادة"[١].

وأما الدليل الآخر: والذى فيه إقناع للخصم، فيتضح ذلك من خلال قوله تعالى : { قُلْ سِيرُوا فى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّـهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }. أى "انظروا كيف بدأت الخلق؛ فاعتبروا الإعادة بالابتداء"[٢] وهذا هو الدليل الحاصل من الآفاق ومفهومه: أى " إن لم يحصل لكم هذا العلم – أى العلم النفسى – فتفكروا فى أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكرى؛ وهذا لأن الإنسان له مراتب فى الإدراك.

بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له. وبعضهم لا يفهم إلا بالإبانة. وبعضهم لا يفهم أصلاً. فقال: إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا فى الأرض. أى: سيَّروا فكركم فى الأرض وأحيلوا ذهنكم فى الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق " [٣].

وبانضمام هذا الدليل إلى الدليل الأول – وهو الدليل النفسى الذى موجبه العلم الحَدْسى – يحصل العلم العام؛ لأن الإنسان المنكر للبعث إذا نظر فى نفسه وما فيها من أمور عجيبة، وتراكيب محكمة؛ أدرك أن وجوده من الله – تعالى – وبالتالى فهو محتاج إليه. وإذا نظر فى الكون وعلم أن المتحكم فيه والمسيّر له هو الله، وأن وجوده عنه؛ فهنا يتم علمه بأن كل شيء منه (ﷻ) .

ومن هنا يمكن القول: بأن الآيتين السابقتين تخاطبان المنكرين للبعث والمستبعدين لحدوثه ووقوعه ومفهومهما: " إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذا الأمر عند الله سهل يسير، فسيروا فى الأرض لتعلموا أنه مقدور، ونفس كونه مقدوراً كاف فى إمكان الإعادة " [٤] فإن الذى خلق الخلق بداية قادر على أن "

---

(١) السابق: ٢٥ / ٤٠.
(٢) أعلام الموقعين: ١ / ١٢٦.
(٣) تفسير الرازى: ٢٥ / ٤٠.
(٤) السابق : ٢٥ / ٤٢.

ينشأها نشأة ثانية بعد الموت، فكما لم يتعذر عليه إحداثها مبدءاً، لا يتعذر عليه إنشاؤها مُعيداً " [١].

وأما قوله تعالى: { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [٢] ففيه نفس الحجة التى فى الآيتين السابقتين، وهى التدليل والبرهنة على أمر البعث وحدوثه بقياس الإعادة على بدء الخلق. وهو استدلال لا يسع المنكرون للبعث إلا التسليم والاعتراف به؛ " إذ لا ينازعون فى أن الله وحده هو خالق الخلق " [٣] وإذا سلم له ذلك؛ " كان تسليم إعادته أولى وأجدر " [٤].

وكذلك قوله تعالى فى السورة السابقة نفسها: { وَهُوَ الذى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [٥].

ففيه التدليل والبرهنة على أمر البعث ووقوعه بقياس الإعادة على بدء الخلق. إلا أن الحوار فى هذا الموضع " أشبه بالتسليم الجدلى فى المناظرة؛ ذلك لأنهم لما اعترفوا بأن الله هو بادئ خلق الإنسان وأنكروا إعادته بعد الموت ... ولما كان إنكارهم الإعادة بعد الموت متضمناً تحديد مفعول القدرة الإلهية؛ جاء التنزيل فى الاستدلال إلى أن تحديد مفعول القدرة لو سلم لكان يقتضى إمكان البعث بقياس الأحرى، فإن إعادة المصنوع مرة ثانية أهون على الصانع من صنعته الأولى وأدخل تحت تأثير قدرته فيما تعارفه الناس فى مقدوراتهم"[٦].

وهذه المفاضلة التى وردت فى قوله تعالى: " وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ " والتى وقعت " موقع الكلام الموجه فظاهره أن " أهون " مستعمل فى معنى المفاضلة؛ على

---

(١) تفسير البغوى المسمى بمعالم التنزيل فى تفسير القرآن: ٦ / ٢٣٧. ت / محمد عبد الله النمر وآخرين، ط: دار طيبة للنشر، الرابعة ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
(٢) سورة الروم: الآية [١١].
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢١ / ٦١.
(٤) السابق: ٢١ / ٦١.
(٥) سورة الروم: الآية (٢٧).
(٦) التحرير والتنوير: ٢١ / ٨٣، بتصرف يسير.

طريقة إرخاء العناء والتسليم الجدلى: أى الخلق الثانى أسهل من الخلق الأول " [١].

وهذا فى معنى قوله تعالى: { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [٢].

والأهونية هذه بالنسبة للعباد؛ لأن الأمور بالنسبة لله تعالى كلها متساوية، فإن كل شيء عليه (ﷻ) يسير وهو على كل شيء قدير.

وبيان ذلك: " أن هذا مثل ضربه الله – تعالى – لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغى أن يكون البعث لمن قدر على البداية – عندكم وفيما بينكم – أهون عليه من الإنشاء " [٣].

فهذا التمثيل " تقريب لفهم السامع، وتحقيق البعث؛ فإن من صنع صنعة أول مرة كانت أسهل عليه ثانى مرة، ولكن الأمور كلها متساوية عند الله، فإن كل شيء على الله يسير"[٤].

يقول النبى (ﷺ): " يقول الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إيأى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته. وأما شتمه إيأى فقوله: اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " [٥].

ففى هذا كله إقناع للخصم المنكر للبعث والمعاد.

وأما قوله تعالى: { مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [٦].

---

(١) السابق نفسه: ٢١ / ٨٣.
(٢) سورة ق: الآية (١٥).
(٣) تفسير القرطبى المسمى: الجامع لأحكام القرآن الكريم: ١٤ / ٢١ – ٢٢. ت / أحمد البردونى وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية، القاهرة، الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
(٤) تفسير ابن جزى المسمى: التسهيل لعلوم التنزيل: ٢ / ١٣٢. ت د/ عبدالله الخالدى، ط: دار الأرقم بن أبى الأرقم، بيروت، الأولى ١٤١٦هـ.
(٥) سبق تخريجه فى صـ ٢٥ .
(٦) سورة لقمان: الآية (٢٨).

ففيه حجة عقلية ودليل على إمكانية البعث الذى أنكره المشركون واستبعدوا إعادة الجسم بعد اضمحلاله حيث إنه (ﷻ) " قاس خلق الخلائق وبعثهم بعد الموت، على خلق النفس الواحدة من العدم " [١] والجامع بينهما " سهولة التأتى؛ إذ لا يشغله شأن عن شأن، لأن مناط وجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية " [٢].

والآية فيها استدلال مفحم للخصم المنكر للبعث، والذى يبدو واضحاً من سياق الآية، حيث إن الآية التى قبلها كان الكلام فيها بضمير الغيبة وهى قوله تعالى: {إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ}[٣] وقوله: "ولئن سالتهم من خلق السموات والأرض"[٤].

فحدث "التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لقصد مجابهتهم بالاستدلال المفحم"[٥].

ثم يؤكد المولى (ﷻ) على حدوث البعث وأنه واقع لا محالة بقوله – فى الآية التى تلى الآية – محل الاستشهاد –: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [٦].

حيث إن الآية فيها " استدلال على ما تضمنته الآية قبلها من كون الخلق الثانى – وهو البعث – فى متناول قدرة الله – تعالى – وبأنه قادر على تغيير أحوال ما هو أعظم حالاً من الإنسان " [٧].

وفى هذا " استدلال على إمكان البعث – بقياس التمثيل – بإمكان ما هو أعظم منه من شئون المخلوقات بعد أن استدل عليه بالقياس الكلى الذى اقتضاه

---

(١) النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـ٢٧٠.
(٢) تفسير أبى السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٧ / ٧٥، ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت، بدون تاريخ.
(٣) سورة لقمان: الآية (٢٣).
(٤) سورة لقمان: الآية (٢٥).
(٥) التحرير والتنوير: ٢١ / ١٨٣.
(٦) سورة لقمان: الآية (٢٩).
(٧) التحرير والتنوير: ٢١ / ١٨٤.

قولـه: " إن الله سـميع بصـير " مـن إحاطـة العلـم الإلهـى بالمعلومـات – المقتضـى إحاطة قدرته بالممكنات لأنها جزئيات المعلومات وفرع منها "[١] ويترتب على ذلك إقناع الخصم بالحجة، وأن البعث واقع لا محالة، وإن أنكره فهو مكابر ومعاند.

وأما قوله تعالى: { الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } [٢]. ففيه تقديم للدليل على الدعوى – كما سبق فى أكثر من موضع – وذلك للاهتمام بأمر البعث، وإثبات أنه واقع لا محالة وهو أحد المسالك التى سلكها القرآن الكريم فى طريقة العرض والاستدلال؛ لإثبات قضية البعث والرد على المنكرين له.

وفى الآية السابقة بدأ المولى – أولاً – بذكر خلق الإنسان، وبين كيفية تناسله، ثم بعد ذلك أورد قضية البعث وشبهة المنكرين له بقوله تعالى – على لسانهم –: { وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ } [٣]. " أى أظهروا فى كلامهم استبعاد البعث بعد فناء الأجساد واختلاطها بالتراب؛ مغالطة للمؤمنين وترويجاً لكفرهم " [٤].

وهذه إحدى الشبه التى تمسك بها المنكرون للبعث والنافون لحدوثه ووقوعه، وهى حجة واهية وشبهة بالية " ولو أنهم التفتوا إلى مبدأ خلقهم لعلموا أن القدرة التى أنشأتهم أولاً لا يعجزها إعادتهم ثانياً " [٥] ثم كرر عليهم القرآن الكريم بالخبر القاطع بوقوع الآخرة بقوله: { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الذى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } [٦]. وفى هذا التأكيد إقناع للخصم بقضية البعث وأنه لابد واقع وكائن حين يأذن المولى (ﷻ).

---

(١) السابق: ٢١ / ١٨٤ – ١٨٥.
(٢) سورة: السجدة، الآيات [٧ – ٩]
(٣) سورة: السجدة، الآية [١٠].
(٤) التحرير والتنوير: ٢١ / ٢١٨.
(٥) مسلك القرآن الكريم فى إثبات البعث د. على محمد الفقيهى صـ٧، سابق.
(٦) سورة: السجدة، الآية [١١].

وأما قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ... فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (١).

فهى كسابقتها من الآيات فى بيان إنكار المنكرين للبعث استبعاداً لحدوثه، فبدأ القرآن – أولاً – بتفنيد دعواهم هذه بقوله: { وَنَسِيَ خَلْقَهُ } " أى نسى أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء، ثم جعلنا لهم من النواصى إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام، وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام، وهو النطق والعقل الذين استحقوا بهما الإكرام، فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلاً، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه " (٢) ثم كرر ثانياً عليهم بتفنيد الدعوى الأخرى وهى أن " استبعادهم إن كان من جهة ما فى المعاد من التفتيت والتفرق حيث قالوا: { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } اختاروا العظم للذكر؛ لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله – تعالى – دفع استبعادهم من جهة ما فى المعيد من القدرة والعلم فقال: " وضرب لنا مثلاً " أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدْأه الغريب " (٣).

ثم رد القرآن الكريم فى الآيات السابقة على شبهة أخرى للمنكرين للبعث والتى تعود فى مجملها " إلى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين. أحدهما: أنه بعد العدم لم يبق شيئا – فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود.

وأجاب عن هذه الشبهة بقوله تعالى: { قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } يعنى كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، كذلك يعيده وإن لم يبق منه شيئا مذكورا.

---

(١) سورة: يس، الآيات [٧٧ – ٨٣].
(٢) تفسير الرازى: ٢٦ / ٣٠٨.
(٣) السابق: ٢٦ / ٣٠٨.

وثانيها: أن من تفرقت أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضهم فى أبدان السباع، وبعضه فى البحار كيف يجمع ؟ وأبعد من هذا أن إنساناً إذا أكل إنساناً وصار أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل، فإن أعيد فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء، فقال تعالى فى إبطال هذه الشبهة { وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } ووجهه: هو أن فى الآكل أجزاء أصلية، وأجزاء فضلية، وفى المأكول هى ما كان له قبل الأكل { وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } الأصلى من الفضلى فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة فى البقاع المبددة فى الأصقاع بحكمته الشاملة، وقدرته الكاملة – ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم وعنادهم فقال تعالى: {الذى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ}.

ووجهه: هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به، وحياة سارية فيه وهى كحرارة جارية فيه، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه، فإن النار فى الشجر الأخضر الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون؛ حيث منه توقدون، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه، فإن الله خلق السموات والأرض فبان لطف قوله تعالى: { الذى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ } [(١)]. وصدق الله إذ يقول: { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [(٢)].

ثم عاد القرآن الكريم وكر على الخصم ببيان وقوع الحشر والبعث، وأن هذا أمر هين أمام قوته وقدرته (ﷻ) فقال: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }.

(١) السابق نفسه: ٢٦ / ٣٠٩.
(٢) سورة: غافر، الآية [٥٧].

" وهذا إظهار لفساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم؛ حيث ضربوا لله مثلاً وقالوا: لا يقدر أحد على مثل هذا: قياساً للغائب على الشاهد. فقال فى الشاهد: الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا فى الأزمنة الممتدة والله يخلق بـ (كن فيكون) ، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك " (١).

وقد ذكر ابن القيم (٢) أن الآيات السابقة تشتمل على ردودٍ كثيرة للمنكرين للبعث والمستبعدين لحدوثه. "أحدها: قوله: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ} " فذكّره مبدأ خلقه ليدله على النشأة الثانية، ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل؛ بل لمّا نسى خلقه ضرب المثل، فتحت قوله: { وَنَسِى خَلْقَهُ } ألطف جواب، وأبين دليل وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئا: فلان جحدنى الإحسان إليه، ونسى الثياب التى عليه، والمال الذى معه، والدار التى هو فيها؛ حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده فقال: {قُلْ يُحْيِيهَا الذى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } فهذا جواب واستدلال قاطع، ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه بجميع الخلق، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور فى قدرته. ولا قصور فى علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السموات والأرض، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء، فكيف

---

(١) السابق نفسه: ٢٦ / ٣١٠.

(٢) هو محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعى الأصولى شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية، ولد عام ٦٩١هـ وتوفى ٧٥١هـ ودفن بدمشق.
البداية والنهاية لابن كثير: ٧ / ٦٥٧، ط: دار الغد العربى – بدون تاريخ.
ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلى ٢ / ٤٤٧، ط: دار المعرفة – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.
الدرر الكامنة لابن حجر: ٤ / ٢١، ط: دار الكتب الحديثة، ت / محمد سيد جاد الحق.
الأعلام للزركلى: ٦ / ٥٦، ط: دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – السادسة ١٩٨٤م.
طبقات المفسرين للداوودى: ٢ / ٩٤، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

تعجز قدرته وعلمه عن إحيائكم بعد مماتكم، ولم يعجز عن النشأة الأولى، ولا عن خلق السموات والأرض ؟! " [١].

ثم لفت المولى أنظار المنكرين للبعث إلى دليل واضح جلى يتضمن الجواب عن شبه المنكرين بألطف الوجوه وأقر بها للعقل فقال: { الذى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ }. " فإن هذا دليل على تمام قدرته وإخراج الأموات من قبورهم كما أخرج النار من الشجرة الخضراء: وفى ذلك جواب عن شبهة من قال من منكرى المعاد: الموت بارد يابس والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فإذا حل الموت بالجسم ولم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل فإن الحياة لا تجامع الموت فى المحل الواحد ليلزم ما قالوا، بل إذا أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل: وهو خلق السموات والأرض مع عظمها وسعتها وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، ومن لم تعجزه قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذى هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم ؟!.

ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به فقال: { بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } فكونه خلاقاً عليماً يقتضى أن يخلق ما يشاء ولا يعجزه ما أراده من الخلق ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يقصر عنه ولا عن شيء أبداً فقال: { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } فلا يمكنه الاستعصاء عليه ولا يتعذر عليه، بل يأتى طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته، ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله: { فَسُبْحَانَ الذى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ } فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد، معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده يتصرف فيه تصرف المالك الحق فى مملوكه الذى لا يمكنه الامتناع عن أى تصرف شاءه فيه.

(١) أعلام الموقعين: ١ / ١٢٠.

ثم ختم السورة بقوله: { وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } كما أنهم ابتدأوا منه هو، فكذلك مرجعهم إليه فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر وأن إلى ربك المنتهى"(١).

وهكذا تمضى الآيات القرآنية – محل الاستشهاد الذى معنا – فى عرض الأقيسة العقلية والفطرية على وقوع البعث، هذه البراهين التى لا تدع مجالاً للشك – عند صاحب العقل الفطرى السليم – أن البعث واقع لا محالة، وأنه غير مستبعد حصوله ووقوعه، وأنه لا ينكره إلا مكابر ومعاند.

وأما قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٢).

ففيه دلالة على أن الله قادر على البعث والمعاد " والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل فى أول هذه السورة على أنه هو الذى خلق السموات والأرض، ولاشك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حياً بعد أن صار ميتاً، والقادر على الأقوى والأكمل، لابد وأن يكون قادراً على الأقل والأضعف، ثم ختم الآية بقوله: { إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } والمقصود منه: أن تعلق الروح بالجسد أمر ممكن إذ لو لم يكن ممكناً فى نفسه لما وقع أولاً، والله تعالى قادر على كل الممكنات فوجب كونه قادراً على تلك الإعادة، وهذه الدلائل يقينية ظاهرة " (٣).

وفى الآية – أيضاً – عود ورجوع إلى الاستدلال على إمكان البعث حيث ذكر المولى (ﷻ) فى الآيات التى قبلها قصة من أنكر البعث وقال لوالديه { أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } (٤).

وشبهة هذا المنكر للبعث – هنا – هى قوله: { وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى } أى " مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر " (٥).

---

(١) أعلام الموقعين: ١ / ١٢٢.
(٢) سورة: الأحقاف، الآية [٣٣].
(٣) تفسير الرازى: ٢٨ / ٣٠.
(٤) سورة: الأحقاف، الآية [١٨].
(٥) تفسير ابن كثير: ٧ / ٢٦١.
مختصر ابن كثير للصابونى: ٣ / ٣٢١.

فكان الرد من الله (ﷻ) ببيان قدرته وما هو مشاهد فى خلق السموات والأرض وما فيهما من العدم المحض.

وهو ما يسمى بقياس الغائب على الشاهد: فالذى أوجد ذلك من العدم قادر على إحياء الإنسان بعد أن صار ميتاً ولعل التعبير فى الآية – محل الاستشهاد – يبرز ذلك المعنى ويوضحه حيث قال تعالى رداً على المنكرين للبعث المستبعدين لقيام الأجساد يوم المعاد " أولم يروا " أى لم يعلموا، والتعبير – هنا – بالرؤية العلمية فيه دلالة عظيمة على ذلك " لأن هذا العلم عليه حجة بينة مشاهدة، وهى دلالة خلق السموات والأرض من عدم، وذلك من شأنه أن يفرض بالعقل إلى أن الله كامل القدرة على ما هو دون ذلك من إحياء الأموات " (١).

وفى هذا إقناع للخصم المنكر للبعث والمستبعد لقيام الأجساد يوم الحشر والمعاد، وإلا فهو مكابر ومعاند. حيث وضحت له الأدلة اليقينية على قدرة الله وأن البعث واقع لا محالة.

وأما قوله تعالى: { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}(٢). ففيه رد على منكرى البعث والمعاد بقياس الإعادة على الابتداء حيث إن الشيطان قد لبس عليهم وسول لهم "أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة، فتركوا لذلك القياس الصحيح: أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر"(٣).

وقد رد عليهم المولى – فى بداية السورة – وأكد على ثبوت البعث والمعاد بالدلائل الكونية بقوله تعالى: { أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِى وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِى وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ

(١) التحرير والتنوير: ٢٦ / ٦٣.
(٢) سورة: ق، الآية [١٥].
(٣) تفسير الزمخشرى: ٤ / ٣٨٢.

الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } [١] إلى آخر الآيات التى تعرضنا لها فى المطلب السابق.

ثم شرع فى الآيات التى معنا – زيادة فى التأكيد على وقوع البعث وحدوثه، ورداً على شبهة المنكرين له بقولهم: { أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } [٢].

يدلل على وقوع البعث بدلائل الأنفس، وما فى خلق الإنسان من العجائب والغرائب فقال تعالى: { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ... } الآية والمراد: "ما عجزنا عن الخلق الأول للإنسان فكيف نعجز عن إعادة خلقه[٣].

والخصم يعلم ذلك ويُقِرُّ به، ولعل هذا يبدو واضحاً جلياً من قوله تعالى – رداً على الخصوم المنكرين للبعث والإعادة – { بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } فهذا الرد " للإضراب الإبطالى عن المستفهَم عنه، أى بل ما عيينا بالخلق الأول أى: وهم يعلمون ذلك ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنهم تمكن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه، فالإضراب على أصله من الإبطال " [٤].

واللبس معناه: الخلط بين الأشياء المختلفة الحقائق بحيث يعسر أو يتعذر معه تمييز مختلفاتها بعضها عن بعض، والمراد منه: اشتباه المألوف المعتاد الذى لا يعرفون غيره بالواجب العقلى الذى لا يجوز انتفاؤه؛ فإنهم اشتبه عليهم إحياء الموتى – وهو ممكن عقلاً – بالأمر المستحيل فى العقل فجزموا بنفى إمكانه فنفوه، وتركوا القياس بأنه من قدر على إنشاء مالم يكن موجوداً، هو على إعادة ما كان موجوداً أقدر " [٥].

---

(١) سورة: ق، الآيات [٦: ١١].
(٢) سورة: ق، الآية [٣].
(٣) التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٩٧.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٩٨.
(٥) السابق نفسه: ٢٦ / ٢٩٨.

وفى هذا إقناع للخصم بأمر مركوز فى الطباع، ومسلّم به حيث إن الخصم يعلم أنه وجد من العدم كل ذلك يؤكد له أن البعث واقع لا محالة، وإن أنكره فهو مكابر ومعاند للحق.

وأما قوله تعالى: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى } (١).

فقد دلل الله فيه على البعث بقياس النشأة الثانية على النشأة الأولى وجمع فيه بين النشأتين.

الأولى: والتى تبدو من قوله: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى }.

والثانية: وهى الإعادة يوم القيامة والبعث والجزاء.

والمعنى: " أى كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة وهى النشأة الأخرى يوم القيامة " (٢) بطريق الأولى والأحرى، وفى هذا إقناع للخصم وإلزامه بالحجة، وتأكيد أن البعث واقع لا محالة.

وأما قوله تعالى: { نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ }(٣). ففيه تكرار للطريقة والأسلوب الجميل الذى يجادل فيه القرآن الكريم الخصم ويلزمه بالحجة، ولاسيما فى قضية البعث والمعاد – كما رأينا فى الآيات السابقة والتى تناولها المطلب الذى نحن بصدده.

" وقد أعاد سبحانه هذا المعنى وأبداه فى كتابه بأوجز العبارات وأدلها وأفصحها، وأقطعها للعذر وألزمها للحجة " (٤).

---

(١) سورة: النجم، الآيات [٤٥ – ٤٧].
(٢) تفسير ابن كثير: ٧ / ٤٣٣.
مختصر ابن كثير للصابونى: ٣ / ٤٠٥.
(٣) سورة: الواقعة، الآيات [٥٧ – ٦٢].
(٤) أعلام الموقعين: ١ / ١٢٠.

وقد أعقب المولى (ﷻ) إنكار المشركين للبعث وإحالته " بالاستدلال على إمكانه وتقريب كيفية الإعادة التى أحالوها؛ فاستدل على إمكان إعادة الخلق بأن الله خلقهم أول مرة، فلا يبعد أن يعيد خلقهم " (١) ثم أعقب الدليل على إمكانية البعث " بدليل قياس التمثيل، وهو تشبيه النشأة الثانية بالنشأة الأولى المعلومة عندهم، وهو تشبيه النشأة الثانية بالنشأة الأولى المعلومة عندهم، فنبهوا ليقيسوا عليها النشأة الثانية فى أنها إنشاء من أثر قدرة الله وعلمه، وفى أنهم لا يحيطون علماً بدقائق حصولها " (٢) وذلك بقوله تعالى: { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ } (٣).

وقد اشتملت الآية – زيادة على ما سبق – على التبكيت والتجهيل للمنكرين للبعث، والمحالين له، يظهر ذلك جلياً فى قوله: { فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ } " أى هلا تذكرتم بذلك فأمسكتم عن الجحد، وهذا تجهيل لكم من تركككم قياس الأشباه على أشباهها، ومثله قوله: { نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ } وجيء بالمضارع فى قوله " تَذَكَّرُونَ " للتنبيه على أن باب التذكر مفتوح، فإن فاتهم التذكر فيما مضى، فليتداركوا الآن " (٤).

وخلاصة ما فى الآية – محل الاستشهاد – من حيث الإقناع للمنكرين للبعث: أن الله (ﷻ) دلهم " بالنشأة الأولى على الثانية، وأنهم لو تذكروا لعلموا أن لا فرق بينهما فى تعلق القدرة بكل واحد منهما " (٥) ولو تذكّروا لعلموا: أن الذى أوجد الإنسان من العدم، قادر على النشأة الأخرى وهى إعادته للحياة الآخرة والبعث بطريق الأولى والأحرى.

وفى هذا إقناع للخصم ولجميع المنكرين للبعث، والمستبعدين لحدوثه ووقوعه؛ حيث إن القرآن الكريم خاطبهم بأمر مركوز فى الطباع، ومسلّم به عندهم،

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٧ / ٣١٢.
(٢) السابق نفسه: ٢٧ / ٣١٨.
(٣) سورة: الواقعة، الآية [٦١].
(٤) التحرير والتنوير: ٢٧ / ٣١٩.
(٥) أعلام الموقعين: ١ / ١٢٠.

فهم يعلمون جميعاً أنهم مخلوقون من العدم، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك وإلا فهو مكابر ومعاند للحق.

وأما قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[١].

فقد جاء على لسان نوح (عليه السلام) وهو يخاطب قومه ويجادلهم فى أمر المعاد؛ وهذا إن دل فإنما " يدل على أن الجدال فى تقرير الدلائل، وفى إزالة الشبهات حرفة الأنبياء، وعلى أن التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار " [٢]. ولذا جاء فى القرآن على لسان قومه قولهم: { يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [٣].

" وهذا يدل على أنه (عليه السلام) قد أكثر فى الجدال معهم، وذلك الجدال ما كان إلا فى إثبات التوحيد والنبوة والمعاد " [٤]. وهكذا كل الأنبياء والمرسلين – عليهم الصلاة والسلام – ما جاءوا إلا لتقرير هذه الأمور وإثباتها والإيمان بها، ودحض غيرها – مما تمسك به الكفار والمشركون – بالحجج القوية والأدلة الدامغة.

والآيتان السابقتان وهما قوله تعالى: { وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا }. فيهما استدلال على حدوث البعث والمعاد بقياس التمثيل: وهو – هنا – قياس الإعادة على الابتداء والمعنى: " أى كما أنبتكم الله – تعالى – من الأرض يعيدكم إلى الأرض، كما يعود إليها النبات بعد أن يستوفى حياته فوقها... ولكن لن تظلوا هكذا فى التراب كما يظل النبات الذى عاد إليها، بل تخرجون منها مرة أخرى إلى حياة غير حياتكم الأولى ... إلى الحياة الآخرة وإلى الحساب والجزاء " [٥].

---

(١) سورة: نوح، الآيتين [١٧ – ١٨].
(٢) تفسير الرازى: ١٧ / ٣٤١.
(٣) سورة: هود، الآية [٣٢].
(٤) تفسير الرازى: ١٧ / ٣٤١.
(٥) التفسير القرآنى للقرآن: ١٥ / ١٢٠١.

وهنا لطيفة أخرى: وهى لفت الأنظار إلى أن " الإنسان مخلوق من عناصر الأرض مثل النبات، وإعلامهم بأن بعد الموت حياة أخرى " (١).

وبيَّن هذه الحياة بقوله: " ويخرجكم " وأكّدها بالمفعول المطلق وهو قوله: " إخراجا " رداً على " إنكارهم البعث كأنه قال: يخرجكم حقاً لا محالة " (٢) فأقامت الآيات الحجة على المنكرين للبعث والحساب بقياس التمثيل: والذى يظهر فى الآية بقياس بدء الخلق على الإعادة؛ وهو قياس بما هو مركوز فى الطباع ومسلم به، فالكل يعلم أنه مخلوق من العدم فهو سبحانه على إعادة ما بدأ أقدر وهو عليه أهون ! وإذا ثبت ذلك؛ فلم يبق أمام الخصم المنكر للمعاد إلا أن يسلم أن البعث واقع لا محالة.

" ونوح (عليه السلام) وجّه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهى تنبتهم من هذه الأرض نباتا، وهى تعيدهم فيها مرة أخرى.

ثم تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها، وهى كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة. بساطة البداهة التى لا تقبل جدلاً ! " (٣)، ومن يجادل – فى ذلك بعدما وضح الأمر – فهو مكابر ومعاند للحق.

وأما قوله تعالى: { أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَى } (٤). ففيه – أيضاً – استدلال بالنشأة الأولى على الثانية بالقياس التمثيلى، فإن من خلق الإنسان من العدم قادر على إيجاده مرة أخرى – بعد وفاته وفنائه – للبعث والجزاء.

وقوله تعالى: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَى} واقع " موقع النتيجة من الدليل؛ لأن خلق جسم الإنسان من عدم – وهو أمر ثابت بضرورة المشاهدة – أحق بالاستبعاد من إعادة الحياة إلى الجسم بعد الموت، سواء بقى الجسم غير

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٩ / ٢٠٤.
(٢) تفسير الرازى: ٣٠ / ٦٥٥.
(٣) تفسير الظلال للشيخ سيد قطب: ٦ / ٣٧١٥.
(٤) سورة: القيامة، الآيات [٣٦ – ٤٠].

ناقص أو نقص بعضه أو معظمه، فهو إلى بث الحياة فيه وإعادة ما فنى من أجزائه أقرب من إيجاد الجسم من عدم " [١].

ولما كان المخاطب المنكر للبعث، لا يستطيع إنكار حقيقة أنه وجد من العدم؛ كان الاستفهام فى الآية السابقة، استفهاماً تقريرياً وقع "على نفى ما يراد إثباته ليكون ذلك كالتوسعة على المقرر إن أراد إنكاراً، كناية عن ثقة المتكلم بأن المخاطب لا يستطيع الإنكار" [٢]. وفى هذا إقناع للخصم وإلزامه بالحجة القوية الدامغة، التى لا يستطيع أمامها أن ينكر أو يحاجج.

وأما قوله: { قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أى شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ } [٣]. ففيه استدلال بالنظير على النظير؛ لإثبات البعث، وإقناع الخصم المنكر له، والذى يعد إنكاره للبعث من أكبر أصول كفره.

" وجيء فى هذا الاستدلال بصورة سؤال وجواب؛ للتشويق إلى مضمونه"[٤].

وهذا السؤال والاستفهام صورياً؛ حيث إن المنكرين للبعث لم ينكروا خلقهم ونشأتهم الأولى. " بل المقام لإثبات إمكان إعادة الخلق بتنظيره بالخلق الأول على طريقة قوله تعالى: { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ } أى كما كان خلق الإنسان أول مرة من نطفة، ويكون خلقه ثانى مرة من كائن ما " [٥] وفى هذا الاستدلال إقناع للخصم وإلزام له بالحجة التى لا تقبل النزاع والمناقشة.

وأما قوله تعالى: { فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ } [٦].

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٩ / ٣٦٨.
(٢) السابق نفسه: ٢٩ / ٣٦٨.
(٣) سورة: عبس، الآيات [١٧ – ٢٢].
(٤) التحرير والتنوير: ٣٠ / ١٢٢.
(٥) السابق: ٣٠ / ١٢٢.
(٦) سورة: الطارق، الآيات [٥ – ٩].

ففيه دليل عقلى على ثبوت المعاد وهو " الاستدلال بالمبدأ والنشأة الأولى على المعاد والرجوع إليه " [١] حيث قاس (ﷻ) الإعادة على بداية الخلق والنشأة الأولى من العدم.

وفى الآية السابقة يدعو المولى (ﷻ) الإنسان أن ينظر فى مبدأ خلقه ونشأته؛ فإن ذلك فيه دلالة واضحة وظاهرة على معاده وحشره ونشره، ورجوعه إلى رب العالمين، فالذى أوجده من العدم قادر على أن يعيده مرة أخرى يوم القيامة !!

والإنسان المنكر للمعاد لا ينكر أنه وجد من عدم ولم يكن شيئاً مذكوراً، إذن " فالحقيقة التى اعتمد عليها القرآن فى هذا المجال حقيقة بديهية، لا تحتاج إلى جدل طويل؛ وقد ساق لهم القضية فى أسلوب منطقى لا يخرج من التسليم به إلا مكابر " [٢] ومعاند للحق.

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم: ١ / ١٢٥.
(٢) خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية د. عبدالعظيم المطعنى: ٢ / ٢٥٣.

المطلب الثالث

الآيات التى اشتملت على المعنيين السابقين[١]

وقد جاءت فى موضعين:

أولهما: قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }[٢].

ثانيهما: قوله تعالى: { يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } [٣].

وأما الموضع الأول: ففيه استدلال على البعث بدليلين وهما:

١- قياس الإعادة على الابتداء.

٢- قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها.

وقد جمع الله بين الدليلين فى الآية السابقة، فى إطار التدليل والبرهنة على حقيقة البعث وإمكان حدوثه.

أما الدليل الأول: فيبدو واضحاً جلياً فى بداية الآية: وهى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ... } إلى قوله: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا } " فالذى خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب، ثم كوّنه من ماء، ثم خلقه أطواراً عجيبة إلى أن يتوفاه فى أحوال جسمه وفى أحوال عقله وإدراكه؛ قادر على إعادة خلقه بعد فنائه " [٤].

ومعنى الآية أن الله يخاطب المشركين ويقول لهم: " إن كنتم فى ريب من البعث فلستم ترتابون فى أنكم مخلوقون، ولستم ترتابون فى مبدأ خلقكم من حال

---

(١) وهما : قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها ، وقياس الإعادة على الابتداء .
(٢) سورة: الحج، الآية [٥].
(٣) سورة: الروم، الآية [١٩].
(٤) التحرير والتنوير: ١٧ / ١٩٦.

إلى حال إلى حين الموت. والبعث الذى وعدتم نظير النشأة الأولى فهما نظيران فى الإمكان والوقوع، فإعادتكم بعد الموت خلقاً جديداً كالنشأة الأولى التى لا ترتابون فيها.

فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها ؟! [١] وفى هذا إقناع للخصم وإلزام له بالحجة القوية التى لا يستطيع إنكارها؛ لأنه قياس بما هو مركوز فى الطباع، ومسلّم به، لأن كل إنسان – مهما كانت ديانته وملته – يعلم أنه مخلوق من العدم، ومن أنكر ذلك فهو مكابر ومعاند للحق، وفى هذا رد على المنكرين للبعث من خلال قياس الإعادة على الابتداء.

الدليل الثانى: وهو قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها، فهذا يبدو جلياً من خلال قوله تعالى: { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }. وسوق هذا الدليل تلو الدليل الأول – الذى ذكرناه – مباشرة وفى آية واحدة إنما هو " ارتقاء فى الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل؛ لأنه استدلال بحال مشاهدة فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإنه مبدأ غير مشاهد فقيل فى شأنه: { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ } " [٢].

وكون الآية – محل الاستشهاد – دليل على إمكانية البعث ووقوعه أن " همود الأرض بمنزلة موت الإنسان، واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت " [٣] ثم يؤكد المولى (ﷻ) على الدليلين السابقين الدالين على إمكانية البعث وحدوثه بقوله: { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ } [٤].

وهذه الأمور الدالة – فى الآية السابقة – والمؤكدة على حدوث البعث هى ملابسة لأحوال وجود الإنسان فى هذه الحياة، وأحوال إحياء الأرض.

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم: ١ / ١٢٠.
(٢) التحرير والتنوير: ١٧ / ٢٠٣.
(٣) السابق: ١٧ / ٢٠٣.
(٤) سورة: الحج، الآيتين [٦ – ٧].

" ووجه كون هذه الأمور الخمسة المعدودة فى هذه الآية ملابسة لأحوال خلق الإنسان، وأحوال إحياء الأرض؛ أن تلك الأحوال دالة على هذه الأمور الخمسة: إما بدلالة المسبب بالنسبة إلى وجود الله وإلى ثبوت قدرته على كل شيء، وإما بدلالة التمثيل على المثل والواقع على إمكان نظيره الذى لم يقع بالنسبة إلى إحياء الله الموتى ومجيء الساعة، والبعث، وإذا تبين إمكان ذلك حق التصديق بوقوعه؛ لأنهم لم يكن بينهم وبين التصديق به حائل إلا ظنهم استحالته، فالذى قدر على خلق الإنسان من عدم سابق، قادر على إعادته بعد اضمحلاله الطارئ على وجوده الأحرى بطريقة.

والذى خلق الحياة بعد أن لم تكن فيها حياة يمكنه فعل الحياة فيها أو فى بقية آثارها، أو خلق أجسام مماثلة لها وإيداع أرواحها فيها بالأولى، وإذا كان ذلك عُلم أنه ساعة فناء هذا العالم واقعة، قياساً على انعدام المخلوقات بعد تكوينها، وعُلم أن الله يعيدها قياساً على إيجاد النسل، وانعدام أصله الحاصل للمشركين فى وقوع الساعة منزلة العدم لانتفاء استناده إلى دليل " [١] فكل هذه الأدلة الكونية والنفسية فيها دلالة قاطعة على ثبوت البعث والمعاد وإمكان حدوثه ووقوعه.

وهذه الأدلة فيها " من الإيذان بقوة الدليل، وأصالة المدلول فى التحقق، وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى؛ فإن إنكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضى ببطلانه بديهة العقول " [٢]، ومنكر ذلك مكابر ومعاند للحق.

وأما قوله تعالى: { يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } [٣].

فقد اختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: { يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى } لكن يمكن أن يكون المراد منه " إخراج اليقظان من النائم

(١) التحرير والتنوير: ١٧ / ٢٠٥ – ٢٠٦.
(٢) روح المعانى للألوسى: ١٧ / ١٥٣.
(٣) سورة: الروم، الآية [١٩].

والنائم من اليقظان. وهذا يكون ذكره للتمثيل أى إحياء الميت عنده، وإماته الحى كتنبيه النائم، وتنويم المنتبه " (١).

وأما قوله تعالى: { يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } (٢).

وفى الآية استدلال على قضية البعث بثلاث مقدمات ونتيجة.

" أما المقدمة الأولى فهى: " إخراج الحى من الميت " وأما المقدمة الثانية فهى: " إخراج الميت من الحى " وأما الثالثة فهى: " ويحيى الأرض بعد موتها " ينتج عن ذلك " أن الله يعيد الخلق بعد موتهم؛ حيث إن من قدر على الجمع بين الأضداد، فأخرج من الميت حيا، ومن الحى ميتاً؛ فمن باب أولى أن يعيده مرة أخرى " (٣).

لكن الملاحظ فى الآية – محل الاستشهاد – أن المولى تبارك وتعالى – عند حديثه عن الموتى وإخراجهم من قبورهم؛ بالقياس على حياة الأرض بعد موتها – لم يُفصّل، بل جاء الكلام مجملاً ومقتضياً، " لأنها خطاب للمؤمنين، وتعريض للرد على المشركين بإقامة الحجة عليهم " (٤).

" فدل بالنظير على النظير، وقرب أحدهما من الآخر جداً بلفظ " الإخراج " أى يخرجون من الأرض أحياءً كما يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى " (٥).

ومعناه: "أى مثل ذلك الإخراج البديع الشأن "تخرجون" من قبوركم"(٦).

وفيه " إشارة إلى أن خروج الموتى من القبور، لا يخرج عن أن يكون صورة من تلك، التى تخرج فيها الحياة من عالم الموات... وأقرب مثل لهذا، الأرض

---

(١) تفسير الرازى ٢٥ / ٨٩.
(٢) سورة: الروم، الآية [١٩].
(٣) النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة صـــ٢٦٢.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢١ / ٦٧ بتصرف.
(٥) أعلام الموقعين: ١ / ١١٨.
(٦) روح المعانى للألوسى: ٢١ / ٤١، سابق.

الجرداء الجديب ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج... فهل تعجز قدرة الله أن تنفخ فى هذا التراب الهامد، الذى احتوى أجساد الآدميين؛ فإذا هم بشر ينتشرون...؟"[١] ففى هذا القياس التمثيلى. وهو قياس إخراج الناس من قبورهم على إحياء الأرض بعد موتها – حجة ملموسة ومشاهدة لكل ذى عينين، لا تحتاج إلى جدل ذهنى أو إعمال عقل؛ بل هى واضحة لا ينكرها إلا مكابر أو معاند.

ومعناه: " كإخراج النبات من الأرض بعد موته فيها، يكون إخراجكم من الأرض بعد أن كنتم أمواتاً فيها " [٢] وهكذا يمضى القرآن الكريم فى عرضه – على المنكرين للبعث – مشاهد مألوفة ومحسوسة ومعروفة.

" تطالع حواسهم فى كل لحظة، وتوجه بديهتهم فى كل نظرة، وتتصل بحياتهم ومعاشهم، وتلمس شعورهم ووجدانهم، وتسلك طريقها هينة إلى نفوسهم، وهو يوجههم إلى هذه المشاهد بعرضها عليهم؛ كأنها مشاهد جديدة – وإن مشاهد الطبيعة لجديدة أبداً عند من ينظر إليها بحسٍ مرهف وعين مفتوحة – دون أن يثير ذلك الجدل الذهنى الذى قد يعتمد على المهارة أكثر مما يعتمد على الحقيقة " [٣].

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن الكريم لعبد الكريم الخطيب: ١١ / ٤٩٣ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير: ٢١ / ٦٨.
(٣) التصوير الفنى فى القرآن الكريم للشيخ / سيد قطب صـ١٨٩ – ١٩٠، ط: دار المعارف المصرية – الحادية عشرة – بدون تاريخ.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعـــد

فمن خلال كتابتى لهذا البحث توصلت إلى النتائج التالية:

أولاً: أن الحوار العقدى فى القرآن يهدف إلى الحقائق فى ذاتها، ويقيم عليها الحجج والبراهين؛ لإقناع الخصم وإلزامه.

ثانياً: اعتماد القرآن الكريم – فى بعض استدلالاته العقدية – على ما فُطرت عليه النفس من الإيمان بما يُشاهد ويُحس دون إعمال فكر؛ ليكون ذلك أقوى أثراً وأبلغ حجة.

ثالثاً: أن القياس التمثيلى فى القرآن الكريم من مضامين المثل القرآنى، وأحد خصائصه.

رابعاً: استخدم القرآن الكريم المثل القرآنى فى مجادلته الخصوم حتى يقيس الناس ما ينكرونه، على شئ لا ينكرونه؛ فيكون ذلك أدعى فى إقناع الخصم.

خامساً: اختلاف ملامح الجدل القرآنى عن طريقة المتكلمين فى الحجاج.

سادساً: يشترط فى المقاس عليه أن يكون مسلّماً عقديّاً بالنسبة للمخاطبين، أو مشاهداً حساً يتكرر وقوعه بينهم، أو مستقذراً نفسياً وتأباه الطباع؛ لأن الغرض من القياس إقناع الخصم.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله أولاً وآخراً

أهم مصادر البحث

** القرآن الكريم (جل من أنزله).
١. أساليب الجدل فى القرآن الكريم – منتدى البحوث والدراسات القرآنية، د/ يحيى الغوثانى، الانترنت.
٢. أعلام الموقعين لابن القيم، ط: دار الحديث – القاهرة، بدون تاريخ.
٣. الأعلام للزركلى، ط: دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – السادسة ١٩٨٤م.
٤. الأمثال والمثل والتمثل والمثلاث فى القرآن الكريم لسميع عاطف الزين، ط: دار الكتاب اللبنانى – بيروت، الثانية ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
٥. إنجيل لوقا، الكتاب المقدس، ط: دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط، بدون تاريخ.
٦. البحر المحيط فى التفسير لأبى حيان الأندلسى، ت / صدقى محمد جميل، ط: دار الفكر – بيروت، الأولى ١٤٢٠هـ.
٧. البداية والنهاية لابن كثير، ط: دار الغد العربى – بدون تاريخ.
٨. تاج العروس للزبيدى، ت / مجموعة من المحققين ، ط: دار الهداية ، بدون تاريخ.
٩. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ط: دار سحنون، تونس، بدون تاريخ.
١٠. التصوير الفنى فى القرآن الكريم للشيخ / سيد قطب، ط: دار المعارف المصرية – الحادية عشرة – بدون تاريخ.
١١. التعريفات للجرجانى، ت / مجموعة من المحققين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
١٢. تفسير ابن جزى المسمى: التسهيل لعلوم التنزيل ، ت د/ عبدالله الخالدى، ط: دار الأرقم بن أبى الأرقم، بيروت، الأولى ١٤١٦هـ.
١٣. تفسير ابن كثير، ت/ محمد حسين شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، منشورات محمد على بيضون، الأولى ١٤١٩هـ.

١٤. تفسير أبى السعود = المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت، بدون تاريخ.
١٥. تفسير البغوى = المسمى: معالم التنزيل فى تفسير القرآن ، ت / محمد عبد الله النمر وآخرين، ط: دار طيبة للنشر، الرابعة ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.
١٦. تفسير الثعالبى المسمى: الجواهر الحسان فى تفسير القرآن، ت. الشيخ: محمد على معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت، الأولى ١٤١٨هـ.
١٧. تفسير الرازى = المسمى: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ط: دار إحياء التراث العربى، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.
١٨. تفسير الزمخشرى، ت / عبد الرازق المهدى، ط: دار إحياء التراث العربى – بيروت، بدون تاريخ.
١٩. تفسير الزمخشرى، ط: دار الكتاب العربى، بيروت، الثالثة ١٤٠٧هـ.
٢٠. تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل، ت / محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ١٤١٨هـ.
٢١. تفسير القرآن لابن القيم، ت/ مكتب الدارسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ / إبراهيم رمضان، ط: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الأولى ١٤١٠هـ.
٢٢. التفسير القرآنى للقرآن لعبد الكريم الخطيب، ط: دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ.
٢٣. تفسير القرطبى = المسمى: الجامع لأحكام القرآن الكريم ، ت / أحمد البردونى وإبراهيم أطفيش، ط: دار الكتب المصرية، القاهرة، الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
٢٤. تفسير الماتريدى = المسمى: بتأويلات أهل السنة، ت: مجى باسلوم، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
٢٥. الجامع الصحيح للبخارى، ت د / مصطفى ديب البغا، ط: دار ابن كثير – اليمامة – بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٢٦. حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى، نشر مكتبة الحقيقة عام ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
٢٧. حاشية الصاوى على الجلالين، ط: العامرية الشرقية، الأولى – بدون تاريخ.
٢٨. الحوار ودوره فى إثبات قضايا العقيدة، أ.د / سعد خلف عبد الوهاب، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، العدد الثانى والعشرون سنة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
٢٩. خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية، د / عبد العظيم المطعنى، ط: مكتبة وهبة، الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
٣٠. دراسات حول أسلوب التشبيه وآيات الوحدانية، د / عبد الله على محمد حسن، ط: مركز فجر لخدمات الطباعة.
٣١. دراسة فى آداب البحث والمناظرة د. محمد عيسى زكريا ، بدون طبعة.
٣٢. الدرر الكامنة لابن حجر، ت / محمد سيد جاد الحق، ط: دار الكتب الحديثة.
٣٣. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلى، ط: دار المعرفة – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.
٣٤. رسالة الآداب فى علم آداب البحث والمناظرة للشيخ / محمد محيى الدين عبد الحميد، ط: المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، السابعة ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م.
٣٥. روح المعانى للألوسى، ت. د / السيد محمد السيد وسيد إبراهيم عمران، ط: دار الحديث – القاهرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
٣٦. زهرة التفاسير للشيخ / محمد أبو زهرة، ط: دار الفكر العربى، بدون تاريخ.
٣٧. شرح الخريدة البهية للشيخ أحمد الدردير، ت د/ مصطفى أبو زيد رشوان، دار البصائر – مدينة نصر – القاهرة، الأولى ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.
٣٨. صحيح ابن حبان، ت / شعيب الأرناؤوط ، ط : مؤسسة الرسالة – بيروت – الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٣م .

٣٩. صحيح مسلم، ت / محمد فؤاد عبد الباقى ، ط : دار إحياء التراث العربى – بيروت – بدون تاريخ .
٤٠. طبقات المفسرين للداودى، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٤١. غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى، ت / حمزة النشرتى وآخرون، ط: المكتبة القيمة، بدون تاريخ.
٤٢. فى ظلال القرآن للشيخ: سيد قطب، ط: دار الشروق – القاهرة ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م.
٤٣. القياس لأبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، بدون طبعة.
٤٤. كتاب المنطق للشيخ محمد رضا المظفر، ط: دار التعارف للمطبوعات، العراق ١٤١٤هـ ١٩٩٥م.
٤٥. الكليات للكفوى، ت/ عدنان درويش – محمد المصرى، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.
٤٦. كنز العمال لعلاء الدين على المتقى، مؤسسة الرسالة، بيروت – بدون تاريخ.
٤٧. اللآلئ العلية فى توضيح القواعد المنطقية، أ.د / على حسن محمد على، أ.د/ سمير حامد عبد العال – كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط، ط: ١٤٣٢هـ ٢٠١٢م.
٤٨. لسان العرب لابن منظور، ط: دار صادر ، بيروت ، الثالثة ١٤١٤هـ.
٤٩. مجلة الجامعة الإسلامية – السنة الثالثة عشر – العدد ٥٠ – ٥١ – ربيع الآخر ١٤١١هـ ١٩٨١م.
٥٠. مختار الصحاح للرازى، ت / السيد محمود خاطر، ط: دار نهضة مصر – الفجالة – القاهرة .
٥١. مختصر ابن كثير للصابونى، ط: دار التراث العربى – القاهرة، بدون تاريخ.
٥٢. المستدرك على الصحيحين للنيسابورى، ت / مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م .

٥٣. مسلك القرآن الكريم فى إثبات البعث د. على محمد الفقيهى.
٥٤. مسند الإمام أحمد ، ط مؤسسة قرطبة – مصر – بدون تاريخ.
٥٥. مسند الشاميين للطبرانى، ت/ حمدى عبد المجيد السلفى، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت ، الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م.
٥٦. المعجزة الكبرى – القرآن – لأبى زهرة، ط: دار الفكر العربى، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.
٥٧. معجم المعانى الجامع، شبكة الإنترنت.
٥٨. المعجم الوجيز، ط: وزارة التربية والتعليم ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
٥٩. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، د / إبراهيم مصطفى وآخرون، ط: دار الدعوة، بدون تاريخ.
٦٠. مفتاح العلوم للسكاكى، ت / نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٦١. المنهج القرآنى فى الجدل والاستدلال، أ/ عبد السلام بنهروال – الشبكة الإسلامية، الانترنت.
٦٢. نظم الدرر فى تناسب السور للبقاعى، ط: دار الكتاب الإسلامى – القاهرة، بدون تاريخ.
٦٣. النظم القرآنى فى إلجام الخصم بالحجة، رسالة ماجستير للباحث / خالد محمد عزيز الدين، فى كلية اللغة العربية بأسيوط، قسم البلاغة والنقد ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.
٦٤. ويكبيديا – الموسوعة الحرة – شبكة الانترنت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢٨٢٧
التمهيد	٢٨٣١
المبحث الأول **أثر القياس التمثيلي** **فى دحض أدلة المخالفين فى قضية الألوهية**	٢٨٣٣
المطلب الأول: الآيات الواردة فى إقناع الخصم المنكر لوحدانية الله – ﷻ –.	٢٨٣٤
المطلب الثانى: الآيات الواردة فى إقناع الخصم المؤله لعيسى – عليه السلام –.	٢٨٤٨
المبحث الثاني **أثر القياس التمثيلي** **فى دحض أدلة المخالف فى قضية البعث والمعاد**	٢٨٥٣
تمهيد	٢٨٥٤
المطلب الأول: الآيات الواردة فى قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها.	٢٨٥٦
المطلب الثاني: الآيات الواردة فى قياس الإعادة على الابتداء.	٢٨٦٨
المطلب الثالث: الآيات التى جمعت بين المعنيين السابقين.	٢٨٩٥
الخاتمة	٢٩٠٠
أهم مصادر البحث	٢٩٠١
فهرس الموضوعات	٢٩٠٦